الدكتور عبد العزيز الدوري

الجذور التاريخية للشعوبية

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

« وقد جعل (الله) اسماعيل ـ وهو ابن اعجميين ـ عربيا ، لان الله (تعالى) فتق لسانه بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب ، ثم فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين ثم حباه من طبائعهم (اي العرب) ومنحه من اخلاقهم وشمائلهم وطبعه من كرمهم وانفتهم وهممهم على اكرمها واسناها » .

الجاحظ

الجذور التاريخية للشعوبية

بيروت ـ لبنان
ص . ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى ـ شباط (فبراير) ١٩٦٢
الطبعة الثانية ـ تموز (يوليو) ١٩٨٠
الطبعة الثالثة ـ تشرين الثاني ١٩٨١

مقدمة

ان تاريخ الامة متصل مترابط يكوّن سلسلة حلقات متتابعة، او مجرى متصلا ، يؤدي بعضه الى بعض . وحاضر الامة نتاج سيرها التاريخي وبداية طريقها الى المستقبل . ولذا فلا انقطاع في التاريخ ، ولا ظاهرة تبدو فيه دون جذور وتمهيد .

وهذا يعني ان فهم حاضر الامة يوجب دراسة الجذور وتفهم سيرة الامة عبر العصور . ومثل هذا لا يعني الرجوع الى الوراء ، بل يعني فهم ذات الامة ويعني التحرر من عبء التاريخ، وتيسير الحركة البناءة في سير الامة الى الامام .

والاتصال في تاريخ الامة لا يعني ان التاريخ حركة رتيبة ، او ان الامة سارت بنفس الخطوات خلال تاريخها ، بل ان فيها فترات تزخر بالحيوية والتوثب واخرى تتصف بالحركة التدريجية والتطور الهادىء . ولكل امة فتراتها الثورية ، وهي في الواقع انطلاق صاخب لقوى تجمعت خلال فترات من الكبت او من التطور السريع الواسع ، او هي تعبير عن غليان داخلي انفجر في ثورة صاخبة . وقد تكون لهذه الفترات آثارها البعيدة في الفترات التي تعقبها او في فترات تالية . ومن هنا تتباين فترات تاريخ

الامة في سيرتهـا عبر العصور . فقد يكون اثر فترة بعيدة اقوى في حاضر الامة من فترة قريبة من هذا الحاضر .

ثم ان فترات الازمات في تاريخ الامة تكشف عـن تياراتهـا الخفيـة او عـن جذور عريقـة لا نحس بهـا الا اثناء الازمة . ان الازمات تلقي اضواء كشافـة على جوانب القوة والضعف في حياة الامة بصورة قد تكـون اخاذة او مريعة ، ولكنهـا على كل حـال تكشف الكثير وتبصّر الامة بامكانياتهـا ونواحي ضعفهـا ، فـان توافرت لهـا الحيويـة اجتازتهـا وهي اقوى واثبت وارسـخ واقدر علـى الحياة الكريمـة .

والامة العربية تمر بدور توثب ثوري وبدور ازمـة . وقـد كشفت الازمة والتوثب عن جذور ، ورافقتهـا ظواهر موغلـة اصولهـا فـي القدم .

ومن مزايا فترات التوثب السرعـة في الحركة والتحمس للانطلاق والرغبة في البناء والاستعداد لكل تضحية . ومن محاذير هذه الفترات النظـر الى الارث بشك ، والترحيب بالحركة وان سارت دون توجيه او تخطيط .

وتعتمد الحركـة المستنيرة الى حد كبيـر على فهم الذات، وعلى استيعاب تجارب الامة وخبراتها . ولا نريـد هنـا الا ان ننظـر الى جانب محدود وهو الشعوبية . وهي محاولة طبيعية توجبهـا ظروفنا . فقد ارتفعت اصوات تدعـو الى نبذ التـراث والاستهانـة بالثقافـة العربية ، وحملوا على المثل العربيـة الاسلامية واعتبروا كل التفات اليهـا رجعية . وتهجموا علـى الوعي العربي وعلى مفهوم الامة العربية وراحوا يثيرونهـا فتنـة باسم العنصريـة او الاقليمية . وجهـد البعض عامليـن علـى التفتيت ، وراحـوا يروجـون الدعوة لمفاهيم غريبة ، ويدعـون الى تقليد الغير فكرا او عمـلا على اساس الاختلاف في الجذور ، ورسموا خطوطـا بعيدة عـن التكويـن التاريخي المفهوم .

لكل هذا نريـد القاء نظرة علميـة نقدية على جـــذور الشعوبيـة في المجتمـع العربي . ولا حاجة بنا لوصف الشعوبية المعاصرة ، بـل يكفينـا ان نفهم الجذور فهمـا عامـا سريعا يرسم الخطوط ويكشف الخيوط . وكلنـا ثقـة بـان الروح العلميـة خيـر سبيل لفهم الذات ولمعرفة النفس . ومن عرف نفسه وعى تجربتـه وادرك طريقه .

كانون الاول ١٩٦١

نطاق الشعوبية

بدات الحركة الشعوبية في الفترة الاموية الاخيرة ،واندفعت بقوة في العصر العباسي ، وهي تمثل جانبا من محاولات شعوب غير عربية لضرب السلطان العربي عن طريق الفكر والعقيدة . فهي في اندفاعها تتكشف عن صراع ثقافي ديني واسع .

ولما كان سلطان العرب يستند الى الاسلام ، اذ انه قام به واستقام به ، فان بعض الجماعات الخاضعة للسلطان العربي تدرجت في اندفاعها الى مهاجمة الاسلام بعدئذ .

وقد ظهرت الحركة في العصر الاموي في اطار الاسلام ،وبدت وكانها تحمل روحا اسلامية ، حين دعت الى مساواة الشعوب الاخرى بالعرب في الادارة والمجتمع ، ثم انكشفت اهدافها الحقيقية في العصر العباسي .

ولتوضيح ذلك ، يجدر بنا ان نلاحظ ان حركة الاعاجم اقتصرت في العصر الاموي على صفوف الموالي ، ولم تقم ثورات بين الاعاجم من غير المسلمين كما هو الحال في العصر العباسي . فهي اذ تتستر في الفترة الاولى ، تبدو صريحة في الثانية، وقد تركزت هذه الحركات في العراق لا في فارس طيلة الفترة الاموية .

وقد شارك الموالي في حركة المختار بن ابي عبيد الثقفي (٦٤ ـ ٦٧ هـ) وفي ثورة ابن الاشعث وفي حركة الحارث بن سريج المرجئي كما ساهموا بنشاط في الدعوة العباسية .

وتبدو مشاركة الموالي في هذه الحركات اشتراكا في ثورات عربية ، قادها العرب ووجهوها . والواقع ان العرب هم الذين نظموا الموالي في العصر الاموي واشركوهم في الثورات لدوافع اسلامية او حزبية . واذا كان العرب قد نظموا الثورات لدوافع خاصة بهم ، فان للموالي دوافعهم الخاصة ، وقد تلونت مشاركتهم احيانا بتذكر الامجاد الماضية او باحياء الاراء الدينية الفارسية القديمة . وتبدو هذه الوجهة اكثر وضوحا باتساع نشاط الغلاة الذين تظاهروا بالاسلام ، حتى ان بعض الحركات العربية شجعتهم رغم خطر اتجاههم كما هو الحال في حركة المختار وفي الدعوة العباسية .

ولا بد لنا ان نتذكر ان الاتجاهات السياسية والاجتماعية تتخذ طابعا دينيا ووجهة دينية في مجتمع يستند الى الدين وتجاه سلطان يقوم على الدين . ولذا يتعذر علينا ان نفصل بين الجانبين ، كما ان الواقع التاريخي يشير بوضوح الى اجتماع الوجهتين الدينية والسياسية لدى الشعوبية ، وخاصة في دور نشاطها .

ويهمنا هنا ان نتبين اطار الموضوع ، وان نحدد مفهومه ومجاله الجغرافي . وقد لا يكون هذا يسيرا في حركة بين التصريح والتلميح ، وبين التستر **والظهور** .

لقد نشطت الشعوبية بصورة خاصة في العراق ، كما تدل الآثار الادبية الباقية من اقلام الجاحظ وابن قتيبة وابي حيان التوحيدي وسهل بن هارون وابن المقفع وبشار بن برد وغيرهم ، ثم في الاندلس كما نرى في كتابات ابن عبد ربه وابن غرسية ويحيى بن مسعدة وغيرهم . ولكن هذا لا يعني ان الحركة الشعوبية اقتصرت على هذين القطرين ، بل نجد آثارها في

بلاد اخرى من دار الاسلام ، ولكنها اقوى ما تكون في العراق وفارس والاندلس . وقد يكون هذا ناشئا عن وجود دول وامجاد انتهت بالفتوحات العربية في هاتين الجهتين الساسانية في فارس والقوطية في الاندلس ، وعن وجود حضارات فيهما غمرها الاسلام ، بالاضافة الى انهما على اطراف الاراضي العربية (او التي تعربت) ، وفيهما تلتقي التيارات الثقافية والدينية المتعارضة وتتصادم . ويكفينا هنا ان نركز على الطرف الشرقي ، لخطورته الثقافية والسياسية ولعمق جذوره الحضارية .

واما مفهوم الشعوبية فانه اشد تعقيدا ، اذ لا بد لنا من اساس نستند اليه في التحديد .

لقد قام الاعاجم بحركات كثيرة وخاصة في العصر العباسي، بعضها ثوري مسلح وبعضها الاخر مستور . ونحن يتعذر علينا ان ندخل الثورات المكشوفة التي قامت باسم الديانات الفارسية المجوسية او تلك التي نادت بالانفصال الصريح ودعت لامجاد فارس الساسانية كثورة المقنع (١٥٩ ـ ١٦٣) او ثورة بابك الخرمي (٢٠١ ـ ٢٢٣) ضمن الحركات الشعوبية . ولكن الحركات السرية التي تتظاهر بالاسلام وتعمل على هدم السلطان العربي الاسلامي او على هدم الاسلام ، او الاتجاهات التي تحاول نسف الاسلام والعرب من الداخل هي التي يمكن ان يطلق عليها اسم الشعوبية . ثم ان الجهود التي بذلت لمسخ التراث العربي او لتشويه دور العرب في التاريخ تمثل جانبا اخر من المحاولات لهدم الكيان العربي ، وتكون طرفا مهما من الحركة الشعوبية .

وان نظرنا الى الموضوع من ناحية اجتماعية ، وجدنا جماعات على مستويات مختلفة تساهم في هذه الحركات والفعاليات ، بين عامة وتجار وكتاب ووزراء وامراء ، بين اميين ومثقفين . ولكن دور الفكر او العقيدة اساسي في هذه الحركات حتى غلبت هذه

الناحيــة على نشاط الشعوبية وهذا يعنــي ايضــا ان الشعوبية ليست حركــة فئة معينة او طبقة اجتماعية ــ ان جاز التحديد ــ بــل انهــا تمثل إجتمــاع الجهــد الذي بذلته فئات مختلفة مــن شعوب متعددة لزعزعة السلطان العربي ، او لاضعاف الاســلام وارباكه ، ولصد تيار الثقافة العربية الاسلامية ، ولنسف التراث، كمــا حاولت تركيز الوعي السياسي والدينــي بيــن صفوفهــا واحيــاء تراثها الثقافي .

احتدم الصراع بيــن العرب والشعوبية ، وتعرض الاســلام والكيان العربي لاختبار شديد ، وخرج العرب اشــد تماسكــا من قبل ، وتبلورت الفكرة العربيــة لديهم ، وانتصر الاسلام علــى الزندقــة وشهد ازدهار علم الكلام .

وبضوء هذا التمهيد ننظر الى نشأة الشعوبية ، واتجاهاتها، ومن فوائد التاريخ انه يلقي اضواء تكشف الجذور وتساعد علــى فهم الحاضر ، ويمكــن من الاعداد للمستقبل بوعي وادراك .

البيئة العامة للشعوبية

بانت بوادر الحركة الشعوبية في العصر الاموي ، وظهر بعض ممثليها بوضوح في مطلع القرن الثاني للهجرة ، بين شاعر يتغنى بامجاد ساسان ،وزنديق يبشر بالمانوية وكاتب ينقل تراث الفرس القدماء في الحضارة والدين ، ولكن بداياتها محاطة بالغموض لانها بدات عملها في جو من الحذر والكتمان ، بل انه يتعذر علينا تحديد هذه البداية .

التسوية

وقد بدات الشعوبية تعمل ، كما يظهر ، باسم المبادىء الاسلامية داعية الى مساواة الموالي بالعرب ، وهذه خطوة طبيعية في فترة سيادة عربية ، وحين لم يكن الموالي قوة خطيرة . وهناك فئة اخرى ، حافظت الى حد كبير على آرائها المجوسية ، وغطتها بستار من الاسلام وراحت تبث في السر تعاليم تناقض مبادئه ، وهي في اساسها استمرار لحركات اجتماعية قامت في العصر الساساني وراحت تترقب الفرص

الآن لتحقيق مآربها . وهؤلاء هم الغلاة ، وقد كانت حركتهم سرية مغلفة ، وسنعود اليها .

ويبدو ان نشاط هذه الفئات تركز في العراق ، مركز ادارة الولايات الشرقية وحيث توجد جماعات كبيرة من الموالي.

وقد ساعد على نشاط اهل التسوية دعوة الاسلام للمساواة بين المسلمين ، وتمسك بعض الاحزاب العربية بفكرة التسوية الاسلامية ، وهذا شأن الخوارج واكثر الاحزاب السياسية كما كان شأن الفقهاء والاتقياء .

وكان العرب اول من رفع راية التسوية ، وتبعهم الموالي. وقد وجد الموالي في هجوم الاحزاب العربية السياسية على الامويين وحكمهم ما يناسب وجهتهم ، فانضموا الى الثورات التي قامت بها هذه الاحزاب تحقيقا لاهدافهم . ورغم ذلك فان انضمامهم الى الاحزاب السياسية ذاتها كان محدودا قبل قيام الدعوة العباسية ، وذلك لاختلاف الاهداف الرئيسية .

موقف العرب من الموالي

ومن المألوف ان تنسب حركات الموالي والاعاجم الى ان السلطان العربي في الفترة الاموية اضطهدهم واحتقرهم ، وانه ارهقهم بالضرائب وابعدهم عن الادارة ، وسار على سياسة العصبية للعرب ونبذ من سواهم واحتقارهم اجتماعيا .

ويورد اصحاب هذا الراي ادلة على رأيهم ، منها رفض العرب تزويج بناتهم من الموالي ، وعدم ترحيبهم بفكرة الزواج من الاجنبيات ، ويشيرون الى نظرتهم الاجتماعية للموالي ، والى حرمان الموالي من الوظائف وفرض الجزية عليهم كما فعل الحجاج في العراق ، والى عدم اعطائهم الاعطيات في الجيش كالعرب .

ومثل هذه الادلة والآراء تحتاج الى تمحيص ونقد ، فنحن نعرف ان الامويين استخدموا الموالي بكثرة في الدواوين ، وهي عماد الادارة المحلية واستخدموهم في الجباية والامور المالية على نطاق واسع ، وفتحوا المجالات العلمية امامهم . ولكنهم لم يسلموهم الرئاسة ، فالامارة وقيادة الجيوش اقتصرت على العرب ، ومع ذلك فان بعض القادة كطارق بن زياد ومقاتل بن حيان النبطي ، وبعض الامراء مثل يزيد بن ابي مسلم ، امير افريقيا ، كانوا من الموالي . اما مجال القضاء ، وهو ضرب آخر من الرئاسة يستند الى العلم والفقه ، فقد فتح امام الموالي حتى أن قاضي الكوفة في زمن الحجاج كان سعيد بن جبير وهو مولى . وبعد هذا فان احتفاظ العرب بالرئاسة يبدو طبيعيا في ظروفهم السياسية والفكرية في العصر الاموي .

اما من الناحية الاجتماعية ، فان العناية بالانساب كانت نظرة سائدة بين القبائل والنظرة القبلية واضحة في تزويج البنات ، وليست هذه قضية توجب السخط او الثورة ، مع إن كثيرا من العرب ولدوا لامهات اعجميات ، بل ان اثنين من الخلفاء الامويين المتأخرين ــ احدهما مروان الثاني ـ كانا من ابناء الاعجميات ، وهذه الظاهرة تدل على تحول في النظرة .

اما في الضرائب، فمن الثابت الآن ان بعض الولاة الامويين، كالحجاج ، فرض الجزية على الموالي نتيجة الازمة المالية في اواسط العصر الاموي ، وهذا يوضح فرض الخراج على العرب انفسهم . وكلا التدبيرين مخالف للعرف الاسلامي في حينه ، ولذا نقضت هذا التدابير ولم تتخذ قاعدة .

اما ما يذكر عن ارهاق الموالي بضرائب جديدة ، فقد تبين ان الامويين لم يتجاوزوا الضرائب المعروفة الموروثة ، كهدايا النوروز والمهرجان ، والضرائب على الصناعات والحرف، وهي ضرائب مألوفة من قبل . وليس لدينا ما يشعر بانهم زادوا في مقدار الضرائب مع ان تحديد الكمية تدبير اداري.

اما العطاء ، فقد شمل بعض الموالي في صدر الاسلام وذلك عند قلتهم وحاجة العرب اليهم في الفتوح ولكن اتساع الهجرة العربية من الجزيرة الى البلاد الجديدة وانتظام الجميع في الجيش لم يدع مجالا او ضرورة للموالي ضمن صفوفه ، فاقتصر العطاء على العرب . ولقد شاركت جماعات من الموالي في غزوات على الحدود الشرقية ، ولكنها كانت من القوات المتطوعة ولذا كانت تشارك في الغنائم فقط لانها لم تستند الى سجل ثابت او اساس دائم .

وما يقال عن احتقار العرب للموالي فيه نظر ، فالموالي لم يكونوا صنفا واحدا في الاساس ، فهناك اناس من السبي او من اسرى الحرب الذين استرقوا ثم اعتقوا ، وهؤلاء قلة بين الموالي . وهم عند تحررهم تبقى الفروق قائمة بينهم وبين اسيادهم ، ولا يرقون الى منزلتهم اجتماعيا . ولكن جل الموالي اناس دخلوا الاسلام ووجدوا ان المجتمع لا يزال يتألف من قبائل، وان دور القبائل كبير في الحياة الاجتماعية اذ لا كيان ولا منزلة اجتماعية خارج نطاقها ، فانتسب الموالي الى هذه القبائل افرادا او جماعات ، وهو انتساب ينطوي على الحلف يضمن للمولى مكانا في المخطط الاجتماعي ، فالولاء في هذه الحالة ولاء حلف لا ولاء عتق . وهم بهذا الحلف يحصلون على الحماية اللازمة ، كما انهم بدورهم يعززون مكانة احلافهم او يساعدونهم ماديا .

ان هذا الحلف فيه شيء من عدم التكافؤ الا انه لا ينطوي على مهانة او احتقار . الا ان العرب شعروا بتفوق في هذه الفترة لاسباب عدة . منها ان نجاحهم السريع اكسبهم ثقة بذاتهم واعتزازا بكيانهم ، واحسوا بانهم حملة رسالة انسانية قبلها غيرهم دون اكراه ، وبذلك قدموا خدمة كبرى للشعوب الاخرى. وفي هذا تأكيد لدورهم ، فمن فضلهم على الشعوب ان هدوهم الى ما فيه خير لهم ، وقبول الرسالة يوجب احلال العرب في

منزلة خاصة . ورافق هذا اعتزاز القبائل بانسابهم وربط المنزلة الاجتماعية بالنسب . وهذه وجهة قبلية لا تنسجم والروح العربية السمحاء التي تجلت في الاسلام . ولما تطور المجتمع باستقرار العرب وتعودهم على الحياة الحضرية ، ضعفت الاسس القبلية واتجهت الادارة الى المركزية وازدادت سلطتها ، فلم تبق ضرورة لهذا الولاء لان السلطة لم تعد تعتمد على القبائل بل على الخليفة وامرائه فأخذ هذا الولاء يتقلص بوضوح .

ومن ناحية مهنية نلاحظ ان الموالي لم يكونوا على درجة واحدة ، فهناك كتاب الدواوين وهؤلاء يتمتعون بمنزلة اجتماعية حسنة ، وهناك التجار من الموالي ولهم مكانة طيبة في المجتمع ولديهم من النفوذ والتأثير الشيء الكثير . وبين الموالي الفلاحون واصحاب الحرف ، وهؤلاء في منزلة اجتماعية متواضعة . ولا يخفى ان القبائل تنظر الى الفلاحة والى الحرف نظرة لا تخلو من استهانة ، ونظرتها الى هؤلاء الموالي تتجه الى مهنهم بالدرجة الاولى .

وترد في بعض المصادر اشارات اعتبرها البعض شواهد تشير الى درجة احتقار الموالي ، كقصة المولى الذي شتم عربيا امام الامير عبدالله بن عامر، فلم يكترث العربي وقال « هم يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا » (١) ، او كقصة الاعرابي الذي سأل صاحبه : « أترى هذه العجم تنكح نساءنا في الجنة ، فقال ارى ذلك ، قال توطأ والله رقابنا قبل ذلك » (٢) ، او كقصة الاعرابي الذي لم يظن ان اخاه الهجين يمكن ان يساويه في الميراث (٣) . فهذه القصص ترد في مصادرنا لتسجل حالات تجلب الانتباه لشذوذها عن المألوف ، لذا لا يمكن اعتبارها ممثلة للوضع . وعلينا ان

---

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٤ .

(٢) المبرد ـ الكامل (مطبعة الهلال ١٩٢٢) ج ٤ ص ٦١ .

(٣) عيون الاخبار ج ٢ ص ٦١، ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٧ .

ننتبه لهـذه الظاهرة في مصادرنـا ، فنعرف الغريب الذي يذكر لغرابتـه ولا ننسى انه الشاذ .

وبعد كل هذا يجدر بنا ان نتذكـر ان ثورات الموالـي والاعاجم وحركاتهم كانت في العصر العباسي اكثر واخطر منهـا في العصر الاموي ، وهي ان كانت تحت الوية عربية وباسم احزاب عربيـة في العصر الاموي فانهـا كشفت عـن حقيقتها في العصر العباسي ، وهذه ظاهرة يتعذر تفسيرهـا اذا اخذنـا بالـراي القائل بان هدف الموالي كـان تحقيـق المساواة الاجتماعيـة او الاشتراك في الادارة ، لان العباسيين حققوا ذلـك الى درجـة بعيـدة وواسعـة .

اسباب تـذمر الموالي

وهذا يدفعنا الى التسـاؤل عن ماهيـة المشكلة ، مشكلـة الموالي ، لصلتهـا الوثيقـة بالحركة الشعوبيـة ، ولنبـدا بطـرح الموضوع ــ هل كانت للموالي مشكلة عامة ؟ وهل كانت لهم وجهة واحدة او وجهات متماثلة ؟

انك ترى ان الموالي كانوا في اوضاع معاشية واجتماعيـة مختلفة ؛ بيـن كتّاب وتجار وفلاحين وصناع ، وترى بعد ذلك، ان الموالي موجودون في اراضي الخلافة الممتـدة عبر آسيـا وافريقيـا واوروبا ، ولكـن حركاتهم ظهرت قويـة في الجـزء الشرقي من الدولة العربية الاسلامية ، وخاصـة بين الفرس او المتنسبيـن اليهم ، هذا مع العلم ان موقف السلطان القائم واحد من الموالي . وهذا يشعـر بأن هنـاك جذورا ودوافع تخصهـم وتميز موقفهم عن غيرهم من الموالي والاعاجم .

وحين نحاول فحص هذه الدوافع نرى انهـا لا تتضح في الاوضاع الاعتياديـة ولا تنكشف الا حيـن يرتفع الغطاء في دور ازمة وغليان ، وهذا ما حصل اثناء الثورة العباسيـة وبعدهـا .

لقد وجدت الدعوة العباسية تأيدا اكيدا من العجم وبينهم الموالي . ولعل النظر الى وجهتها والى الجماعات التي استجابت لها يكشف الى حد كبير عن الدوافع التي كانت ورآء ذلك .

ان جل المنضمين الى الدعوة العباسية كانوا من العامة ، وهناك مجموعة من الاشراف الفرس ايدتها ، خاصة في منطقة خراسان وبينهم الدهاقين نبلاء القرى والمناطق ، وقد عهد اليهم العرب بجباية الضرائب في قراهم او مناطقهم كما كانوا يفعلون في العصر الساساني ، ولذا كانت لهم امتيازات اجتماعية واقتصادية . وقد خسر الدهاقين امتيازاتهم نتيجة التنظيمات المالية التي وضعها نصر بن سيار في اواخر العصر الاموي ، ذلك لانه فرض الخراج على الارض مهما كان مالكها وابقى الجزية على اهل الذمة ، واحل هذا النظام محل الضريبة الواحدة التي كانت تفرض على الافراد ، كنوع من الجزية ،والتي كان الدهاقين واعوانهم يتخلصون منها فتقع على العامة . وهذا يعني ان جل الضريبة صار على الدهاقين لا العامة . فانقلب الدهاقين في السنين الاخيرة على الامويين وانضم كثير منهم الى الدعوة العباسية .

واستجاب البعض للدعوة العباسية لما راوا النبرة الفارسية القومية عند بعض الدعاة . ولا شك ان هؤلاء حاولوا اثارة الوعي القومي لدى الفرس ، كما فعل قحطبة بن شبيب الذي ذكر الخراسانيين بماضيهم ، وبأن الله ساط العرب عليهم ، ثم جار هؤلاء في الحكم « فسلطكم (الله) عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا اشد عقوبة لانكم طلبتموهم بالثأر » (١) .

الغلاة

ووجدت الدعوة العباسية تأيدا واسعا بين عامة الفرس

(١) الطبري ج ٩ ص ١٠٦ .

في خراسان ، وبين العامة جماعات من الغلاة والخرمية ، بل ان هؤلاء كونوا جزءا حيويا من انصار الدعوة . والغلاة جماعة احتفظت بالمفاهيم الاساسية للمجوسية وغلفتها بغلاف اسلامي رقيق ، وحاولت ان تصبغ حركتها صبغة علوية ما دامت الراية العلوية ترمز الى الثورة على الاوضاع ومقاومة السلطان القائم . ومع ان الأئمة العلويين من الخطين الحسيني والحسني تبرؤوا منهم ورموهم بالمروق ، فانهم لم يرتدعوا وحاولوا ان يجدوا في الفرع الحنفي خاصة بعد وفاة محمد بن الحنفية رايتهم .

والغلاة فرق عديدة ، ونظرة الى مبادئهم تشير الى اصول مزدكية وزردشتية ومانوية . بعضهم ترجع قاعدته الى احدى هذه الديانات ، والبعض الآخر يجمع بين مزيج من آرائها ، وقد كانت الزردشتية هي الدين الرسمي في بلاد فارس الساسانية ، اما المانوية والمزدكية فقد كانت مضطهدة ولذا نظمت دعوتها في اطار من التكتم في الاراضي الساسانية . ومن المنتظر ان تستمر هذه الحركات بعد انهيار الساسانيين ، وان تتكيف تبعا للظروف الجديدة . وقد استمرت الحركة المانوية باسم الزندقة في المجتمع الاسلامي ، كما ان الخرمية تمثل تطور الحركة المزدكية بعد ظهور الاسلام ، وهم وان تستروا بالتظاهر بالاسلام احيانا فانهم لم تكن لهم صلة به . والغلاة يمثلون درجة واسعة من المزج بين المجوسية والاسلام ولا يمكن وضعهم في اطار الزندقة او الخرمية .

ومن الغلاة والخرمية ، بل ومن الزنادقة ، جماعات آزروا الدعوة العباسية خدمة لاغراضهم ، دينية او قومية ، ووجدوا في ترحيبها بهم وفي وعودها املا يقربهم من اهدافهم .

وقد نشط الغلاة منذ حركة المختار بن ابي عبيد الثقفي ، ولم يكن لهم تنظيم واضح قبل ذلك ، وانضووا تحت رايته ، وبرز بينهم كيسان مدير شرطة المختار ، ولعل اسمهم « الكيسانية »

يتصل به . وكان المختار اول من حاول كسب موالي الكوفة (حمراء الكوفة) في حركته ، وقد ابدى تسامحا تجاه آرائهم الغريبة بل وشجعها ، وانضمت اليه منهم جموع كبيرة قدرها الدينوري بأربعين الفا . وقد وجدوا في دعوته الى مساواتهم بالعرب في العطاء واعتماده عليهم ما اثار طموحهم وحماستهم (١) وكان تصرف كيسان تجاه بعض اهل الكوفة ينطوي على حقد كبير (٢) ، وهذا ارعب اشراف الكوفة ونفّر القبائل العربية وكان من اسباب انهيار حركته . ولكن حركة الغلو استمرت سرا ووجدت مجالا في الدعوة العباسية ، وذلك ان الهاشمية وهم فرع من الكيسانية، تابعوا ابا هاشم بن محمد بن الحنفية كونوا اول مجموعة من اتباع الدعوة ولعبوا دورا يذكر فيها .

خرمية ، مانوية ، كتاب

اما الخرمية، فقد دخلوا الدعوة العباسية مبدئيا بتأثير داعية من الموالي اسمه خداش (حوالي ١١٦ هـ)، وبعد فترة انتكاس وقتية انضموا اليها باعداد اكبر بتأثير ابي مسلم الخراساني وكان لهم نشاط كبير في بلاد فارس في حياة ابي مسلم وبعده .

---

(١) يقول الدينوري ان المختار « قرب ابناء العجم وفرض لهم ولاولادهم الاعطيات وقرب مجالسهم وباعد العرب واقصاها وحرمهم فغضبوا لذلك ». الاخبار الطوال (باغناء جرجاس) ص ٣٠٦ – ٧ .

(٢) امر المختار ابا عمرة (كيسان) ان يجمع بعض الفعلة بالمعاول ويتتبع دور من خرج الى قتال الحسين فيهدمها : « فجعل يدور بالكوفة على دورهم فيهدم الدار في لحظة فمن خرج اليه منهم قتله حتى هدم دورا كثيرة وقتل اناسا كثيرا وجعل يطلب ويستقصي فمن ظفر به قتله وجعل ماله وعطاءه لرجل من ابناء العجم الذين كانوا معه ». الدينوري – الاخبار الطوال ص ٣٠٠ .

ونحن لا نحس بنشاط يذكر للمانوية الا بعد مطلع القرن الثاني للهجرة، فقد اعدم هشام بن عبد الملك الجعد بن درهم لزندقته، وهو من طلائع نشاط المانوية باسم الزندقة. ولكن حركة الزندقة لم تكن مفهومة بعد، ولعل الجو لم يتسع لهم كما يريدون حتى جاءت ايام الدفء العباسية فارتفع الستار عن نشاط واسع للزنادقة، وما هو الا استمرار نشاطهم في ظروف اكثر ملاءمة لهم لانك ترى عددا منهم ممن عاصر الدولتين الاموية والعباسية.

ومما ساعد على نشاط المانوية في اواخر العصر الاموي استخدام بعضهم كتابا في الدواوين بدل الزردشتية في العراق.

وهنا تجدر الاشارة الى الكتّاب لدورهم الهام في الحركة الشعوبية في العصر العباسي الاول. كان الكتاب في دواوين الخراج والنفقات في العراق بعد الفتح من الزردشتية، واستمر هؤلاء يحتكرون الكتابة ما دامت بالفارسيةحتى تم تعريب الدواوين في العراق في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي. وقد ادى التعريب الى نتيجتين مهمتين : الاولى، استعمال العربية والتأكيد على اتقانها من قبل الكتاب، والثانية دخول جل هؤلاء الكتاب تدريجيا في الاسلام وان بقيت قلة منهم تحتفظ بدينها. ويبدو انالامويين منذ ايام هشام بن عبد الملك وولاية خالد القسري على العراق استخدموا بعض المانوية بدل الزردشتية في الدواوين وليست ظروف ذلك واضحة، فقد يكون ناشئا عن التحول الاداري او عن نشاط المانوية ثقافيا، ويبدو ان الاستعانة بالمانوية في الدواوين وسع المجال امامهم وركز اهميتهم. وبقي الكتاب يعتمدون في جانب مهم من ثقافتهم على التقاليد والتراث الفكري الفارسي. وكان بعضهم ينظر بقلق وشك الى توسع الثقافة العربية والى دورها الحضاري، كما سنرى . ولعل هذا الوضع يساعد على فهم دورهم في العصر العباسي .

بدايات الشعوبيــة

(العصر الاموي)

لعل هذا التمهيد كان ضروريا لفهم طبيعة الحركة الشعوبية ونطاقها كما نراها في العصر العباسي . كما انه يشعر بأن طلائـــع الحركة في العصر العباسي ظهرت بعد فترة تمهيدية فـــي العصر الامــوي .

لقد بان نشاط الشعوبية والزنادقة في ايام المهــدي ولكن المعلومات عن الجيل الاول من هؤلاء تشير الى وجودهم منذ زمــن المنصور والى ان بعضهم من المخضرمين الذي عاشوا في اواخــر العصر الاموي واوائل العصر العباسي من امثال عمارة بن حمــزة وخلف الاحمر ومطيع بن اياس وابن المقفع، كما ان طلائع النزعات الفارسية في العصر الاموي تتمثل في شعوبي كاسماعيل بن يسار وفي زنديق كالجعد بن درهم.

ولكن ملامح الشعوبية لا تتضح في العصر الاموي لقلـــة المعلومات من جهة ولطبيعة الجو السياسي آنئذ، فهي تختفي وراء الدعوة للمساواة باسم مبادىء الاسلام. وكانت حركة الاعاجــم

بين صفوف الموالي، ولم يقم غيرهم بحركة ظاهرة. وقـد تركزت في العراق حتى اواخر العصر الاموي، وكان التأكيد على فكـرة التسوية الاسلامية يزداد قوة بين المسلمين بتغلغل مبادىء الاسلام وتوسع تياره، وفي القرآن والحديث ما يعززها .

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم» ـ الاية . و«لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى» . وذهبت بعض الاحزاب،كالخوارج، الى جواز امامة غير العربي. ولكن هذه النظرة تلونت لدى بعض الموالي بتذكر الامجاد القديمة. قال ابن قتيبة : «وبلغني ان رجلا من العجم،احتجبقول الله (تعالى) «يا ايها الناس . .الاية» وقـال : الشعوب من العجم والقبائل من العرب، والمقدم افضل من المؤخر، وقد كنت ارى اهل التسوية يحتجون بذلك (١).» ولا يخفى ان المعنى ينطوي على حضارة الشعوب ووحدتها وعلى بداوة القبائـل وانقسامهـا .

اسماعيل بن يسار

ومن اوائل من اعلن شعوبيته اسماعيل بن يسار في الفتـرة الاموية الاخيرة، وانت ترى في سلوكه ملامح الشعوبية ووضعهم في تلك الفترة. فهو يتقرب من العرب اول الامر، فيتظاهر بالولاء للزبيريين حين خرجوا على الامويين ،ثم يتقرب مـن هؤلاء ويدعي المروانية ويتظاهر بها، ولا يكتفي بذلك بل يدعي انه شاعر مضحك زيادة في التستر (٢) ثم تنكشف شعوبيته حين ينظم مفتخـرا

(١) ابن قتيبة ـ كتاب العرب، رسائل البلغاء .

(٢) جاء في الاغاني «دخل اسماعيل بن يسار على عبد الملك بن مروان ، لمـا افضى الامر اليه بعد مقتل عبدالله بن الزبير فسلم ووقف موقف المنشد، واستأذن في الانشاد،فقال له عبدالملك:والان يا ابن يسار، انما انت امرؤ=

بالفرس ، ويقول :

رب خـال متوج لي وعـم   ماجد مجتدى كريم النصـاب
انمـا سمي الفوارس بالفـر   س مضاهاة رفعـة الانسـاب
فاتركي الفخر يا امـام علينـا   واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي ان جهلت عنا وعنكم   كيف كنا في سالف الاحقـاب
اذ نربي بناتنا وتدسـون   سفاها بناتكم في التراب (١)

ثم اعلـن بجلاء عن نزعته الشعوبية في قصيدة انشدهـا امـام هشام بن عبد الملك يفخر فيها بالعجم جاء فيها :

مـن مثل كسرى وسابـور الجنود معـا
والهرمـزان لفخـر او لتعظيـم
اسـد الكتائب يوم الروع ان زحفـوا
وهم اذلـوا ملـوك التـرك والـروم
يمشـون فـي حلـق المـاذي سابغـة
مشـي الضراغمـة الاسـد اللهاميـم
هنـاك ان تسألي تنبـي بـأن لنـا
جرثومـة قهـرت عـز الجراثيـم (٢)

= زبيري،فبأي لسان تنشد؟فقال له : يا امير المؤمنين،انا اصغر شأنا من ذلك، وقد صفحت عن اعظم جرما واكثر غناء لاعدائك مني، وانما انا شاعر مضحك». فتبسم عبد الملك ج ٤ ص ٤٢٣ .

وروي انه استأذن مرة على الغمر بن يزيد فحجبه ساعة ثم اذن له فدخل وهو يبكي، فسأله الغمر عن سبب بكائه، فقال: انا على مروانيتي ومروانية ابي احجب عنك. وحين خرج سأله احد الحاضرين عن هذه المروانية فقال :«امرأته طالق ان لم تكن امه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح وان لم يكن ابوه حضره الموت، فقيل له : قل لا اله الا الله، فقال : لعن الله مروان» (الاغاني ج٤ ص ٤١٠) ومن هذا ترى مدى التستر وشـدة الحقد لديـه .

(١) ن. م. ج ٤ ص ٤٢٧ .   (٢) ن. م. ج ٤ ص ٤٢٢

وقد ادت هذه النزعة الى التنكر له ومطاردته. جاء في الاغاني : «وكان ابن يسار مبتلي بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال مضروبا محروما مطرودا» .

وترى الجعد بن درهم على صلة بالامويين ، يؤدب مروان ابن محمد ثم تظهر زندقته وتنكشف وجهته المضادة للاسلام فيلقي حتفه .

الزنادقة

وهناك جماعة ممن يتهم بالشعوبية او الزندقة، من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية. ومن هؤلاء الحمادون الثلاثة، حماد الراوية وحماد عجرد وحماد بن الزبرقان. وتكثر الروايات في اتهامهم بالزندقة وبالتهتك والخلاعة (١) .

وقد حمل السيد المرتضى على حماد الراوية فقال «واما حماد الراوية فكان منسلخا من الدين، زاريا على اهله، مدمنا لشرب الخمور وارتكاب الفجور» (٢). وقد لعب دورا كبيرا في افساد الشعر العربي فهو «لا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الافاق فتختلط اخبار القدماء ولا يتميز الصحيح عنها الا عند عالم ناقد، واين ذلك» (٣). وكان احيانا يأخذ المنحول من الشعر من امثاله، فيرويه على انه الصحيح. قال خلف الاحمر «كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من اشعار العرب واعطيه المنحول فيقبل ذلك مني ويدخله في

---

(١) الاغاني ج ٤ ص ٧٦، وانظر الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٤٤٣ وما بعدها والامالي للسيد المرتضى ج ١ ص ١٢٨، ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) الامالي ج ١ ص ١٣٣ .

(٣) الاغاني ج ٤ ص ٨٩ وانظر ص ٩٠ .

اشعارها» (١). هذا مع ان خلف الاحمر نفسه عرف بتزييف الشعر ، فقد « كان شاعرا يعمل الشعر على لسان العرب وينحله اياهم» (٢)وقد علق السيد المرتضى على عمل حماد بقوله :« وهذا الفعل منه ان لم يكن دالا على الالحاد فهو فسق وتهاون وكذب في الرواية » (٣) .

وكان هؤلاء يتسترون على زملائهم في الزندقة، فهذا حماد عجرد يجعل يونس بن ابي فروة مخدوعا ببعض المتهمين في دينهم، في حين انه من الزنادقة، فيعلق الجاحظ قائلا «ويونس بن ابي فروة الذي زعم حماد عجرد انه غر نفسه بهؤلاء (الزنادقة) كان اشهر بهذا الراي منهم». ويونس هذا شعوبي كتب كتابا لملك الروم « في مثالب العرب وغيوب الاسلام بزعمه » (٤) .

وكان بعض الشعوبية في خدمة ابن معاوية الذي ثار في اواخر ايام الامويين وكون كيانا له في غربي بلاد فارس. ومن هؤلاء عمارة بن حمزة،ويرمي بالزندقة. وكان من ندمائه المقربين مطيع ابن أياس« وكان زنديقا»، والبقلي «وانما سمي بذلك لانه كان يقول الانسان كالبقلة فاذا مات لم يرجع» اي انه كان ينفي البعث والحساب (٥) .

واذا كان بعضهم يكشف عن زندقة او شعوبية، فان اخرين كانوا اكثر تسترا واعمق غورا. وقد يكون ابن المقفع من هؤلاء. فقد نقل الكثير من تراث الفرس القديم الى العربية مثل«خداينامه»

---

(١) الاغاني ج ٦ ص ٩٢ .

(٢) ابن النديم ص ٧٤ .

(٣) الامالي ج ٢ ص ١٣٢ .

(٤) الجاحظ ـ الحيوان ج ٤ ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩. وهجا حماد عمارة بن حربية فعلق الجاحظ «وحماد هذا اشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذي هجاه بهذه الابيات» الحيوان ج ٤ ص ٤٤٤ .

(٥) الاغاني ج ١٢ ـ دار الكتب ـ ص ٢٣٠ .

او سير ملوك الفرس، وكتاب «آيين نامه» او كتاب المراسيم والتقاليد، و «كتاب التاج» في سيرة انو شروان، وان كان في بعض هذه فائدة فان «كتاب مزدك» يسترعي الانتباه ولعله سيرة مؤسس المزدكية. وقد ترجم كِتاب كليلة ودمنة، وله غرض من ذلك عبر عنه المؤرخ العالم البيروني، اذ قال «وبودي ان كنت اتمكن من ترجمة كتاب «نج تنتر»، وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة فانه تردد بين الفارسية والهندية ، ثم العربية والفارسية على السنة قوم لا يؤمن تغييرهم اياه كعبدالله بن المقفع في زيادته باب برزويه قاصدا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة الى مذهب المنانية (اي المانوية)، وان كان متهما فيما نراه لم يخل عن مثله فيما نقل» (١) . وقد كتب ابن المقفع كتابا يبشر فيه بالمانوية، وينقد المفاهيم الاسلامية ويشكك فيها بطريقة تأويلية افتتحه بعبارة «باسم النور الرحمن الرحيم» وصلتنا مقتطفات منه ضمن الرد الذي كتبه القاسم بن ابراهيم»(٢) ويشير المسعودي الى الدور الرئيسي الذي قام به ابن المقفع في نشر الزندقة بنقل مؤلفات ماني وابن ديصان ومرقيون من الفارسية الى العربية (٣) . ويتضح اثر ابن المقفع في قول المهدي « ما وجدت كتاب زندقة قط الا واصله ابن المقفع (٤) » .

الغلاة

وفي اواخر الفترة الاموية نرى ازدياد نشاط الغلاة وهؤلاء

(١) البيروني ـ تحقيق ما للهند من مقولة ـ باعتناء سخاو ـ ص ٧٦ .

(٢) كتاب الرد على الزنديق ابن المقفع لقاسم بن ابراهيم ، باعتناء جويدي روما ١٩٢٧، وانظر احمد افشار شيرازي: ماني ودين او (طهران ١٣٣٥) ص ٧٧ ـ ٨٣ .

(٣) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٨ ص ٢٩٢ ـ ٣ . وقد وردت روايات تنسبه الى الزندقة. انظر الاغاني (ط. الساسي) ج ١١ ص ٧٧، الثعالبي ـ ثمار القلوب ص ١٣٨ ـ ٩ .

(٤) الامالي ج ١ ص ٣١٤ ـ ٥ .

كانوا يتمسكون بتراثهم الديني المجوسي،ويتسترون باسم الاسلام ولا يكشفون الا طرفا من آرائهم المغالية في الامامة، ولكن بعضهم يكشف عن هويته كالمغيرية والمنصورية، بل واخذ يرتكب بعض اعمال العنف والارهاب كالخناقين، وسنعود اليهم. وكان للغلاة دور في الدعوة العباسية، وقد انتبه البعض الى دورهم الخطر والى وجهتهم المعادية للعروبة والاسلام حين كبر دورهم في الدعوة. فهذا نصر بن سيار يحذر القبائل العربية في خراسان من اتباع الدعوة العباسية ونواياهم ويقول :

ابلغ ربيعة في مرو واخوتها
فليغضبوا قبل ان لا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم
كأن اهل الحجا عن رأيكم غيب
وتتركون عدوا قد اظلكم
ممن تأشب لا دين ولا حسب
قوما يدينون دينا ما سمعت به
عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلا عن اصل دينهم
فان دينهم ان تقتل العرب (١)

هنا ترى ادراك الصلة بين العروبة والاسلام، وبأن هذه الجمهرة من العامة التي لا تدين بدين كتابي ولا صلة لها بالاسلام تريد ابادة العرب .

ومع ان الغلاة والخرمية انضموا للدعوة وقبلوا امامة عباسي، الا ان وجهتهم تنكشف اثر الثورة العباسية فتبدو فارسية، اذ وجد كثيرون منهم في ابي مسلم الخراساني المنقذ المنتظر ونقلوا الامامة اليه والى رجال من الفرس كما فعل (الرزامية) و (المسلمية) .

---

(١) الدينوري ـ الاخبار الطوال ص ٣٦٠ .

تطور الشعوبية

آثار الدعوة العباسية

وكان انتصار العباسيين ووصولهم الى الحكم نتيجة دعوة وثورة. دعوة بشرت ببعض المبادىء والاتجاهات، وثورة غيرت بعض الاوضاع. ويهمنا بصورة خاصة موقفها من العرب ومن الموالي. لقد نادت الدعوة بالتسوية بين العرب والموالي في المجتمع. واعلن العباسيون ان مجيئهم للحكم بداية عصر جديد من العدل والرفاه الاجتماعي، وساروا خطوة حين اشركوا الفرس في السلطة، في الجيش والادارة، بل واقاموا اساس الدولة على التوازن والتعاون بين الفرس والعرب، وكان في خطة تعيين الوزير من الموالي الى جانب الخليفة، وهو عربي، رمز هذه المشاركة في السلطة. وينتظر ان يرضي هذا الاتجاه اولئك الذين يدعون الى المساواة بين العرب والموالي ان كانت دعوتهم صادرة عن ايمان بمبادىء الاسلام .

وكانت للثورة العباسية اثار اخرى، فقد اتمت تطورات كانت قد بدأت في العصر الاموي حين ضربت المفاهيم والتنظيمات القبلية بقوة، وحين اعادت تنظيم الادارة والجيش على اسس

جديدة، وهي لم تقصد ضرب العرب، بل سرعان ما اكـــد أن السلطان لا يزال في اساسه عربيا، ولكن هذه التطورات اثرت على النظرة الى العرب وعلى موقف الشعوب الاخرى منها .

لقد كانت الادارة الاموية تستند في اختيار رؤساء الادارة والجيش الى المنزلة الاجتماعية جنب المؤهلات الاخرى وتختارهم من الاشراف العرب. ولهذه الجماعة قيمها ومفاهيمها العربية. ومع ان الامويين اتجهوا الى المركزية في الادارة وخاصة بعد انتهـــاء القرن الاول الهجري وخففوا من مساوىء العصبية القبلية، فـــان ادارتهم بقيت تحتفظ بطابعها العربي العام وبمفاهيمها الاجتماعية. امـــا العباسيون فقد اعتبروا الولاء لهم اساس كل شيء، وخلقوا بيروقراطية من الموظفين، وجعلوا من الكتّاب قاعدتها الاساسية. وهذا بدوره احل مفاهيم جديدة في الادارة وطرقها ووسع جماعة الكتّاب واعطاهم اهمية في الحياة العامة لم تكن لهم من قبل، ولا يخفى ان جل هؤلاء من الموالي، وانهم كفئة ينظرون نظرة تمجيد الى التراث الثقافي الساساني ويرجعون اليه في الكثير مـــن قيمهم ومفاهيمهم (١) .

ومن جهة اخرى اعتمد العرب حتى الان على القبائل العربية في تكوين الجيش، وبذلك حافظوا على الفكرة الاسلامية الاولـــى التي تعتبر الجهاد واجب الامة، وترى في افرادها القادرين على حمل السلاح جنودا او قوات احتياطية. وهي ان اقتصرت فـــي التطبيق على العرب بالدرجة الاولى، الا انه كان هناك متطوعـــة من الموالي، والمهم ان الدولة لم تعتمد على الجنود المرتزقة. ومن المنتظر ان تكون الوحدات الاجتماعية، وهي القبائل او البطـــون، اساس التنظيم العسكري في تكوين العرافات وفي العطاء، ولكن الامة تبقى قاعدة للسلطان، وهي في الوقت ذاته صاحبة السلطة.

---

(١) انظر راي الاستاذ هـ. ا. د. جب فـــي مقالـــه « المعـــنى الاجتماعـــي للشعوبية » (بالانكليزيـــة) .

فلما جاء العباسيون تخلوا عن هذه الوجهة وكونوا قوات نظامية مهنتها القتال وتتألف من الفرس، وعامتهم من خراسان، ومن العرب. وهذا اكد المشاركة في السلطة واعطى الخراسانيين اهمية كبيرة، خاصة اذا تذكرنا ان الجيش الذي تكون خلال الثورة العباسية كان جله من اهل خراسان (١) .

الحركات الثورية

وكان للدعوة العباسية اثرها في تنشيط الوعي القومي بين الفرس، وتهيئة الظروف لنشاط الحركات الدينية الفارسية، وخاصة الخرمية والمانوية بل وبين الزردشتية ايضا. ومن المتعذر الفصل بين النشاط الديني والسياسي، فالحركات الزردشتية الجديدة كحركة بها فريد (١٣٢ هـ) وحركة استاذ سيز (١٥٠هـ) حاولت تجديد الزردشتيةبتطعيمها ببعض الاراء الاسلامية، وارادت ان تمكن الزردشتية من الوقوف في وجه التيار الاسلامي الجارف، وبشرت بظهور المنقذ الذي بشر به زردشت وبعودة الملك اليهم بعد ان اخذه العرب .

وحملت الخرمية راية الثورة المسلحة وانتشرت دعوتها في بلاد فارس، وكانت تمثل في الحقل الاجتماعي اشتراكية مزدك، وفي الحقل الديني والسياسي ضرب الاسلام واعادة السلطان الى العجم. وقد تستر الخرمية احيانا، وحاولوا ان يتخذوا من بعض مبادىء الغلو سبيلا للظهور بمظهر اسلامي، فنقلوا الامامة من العباسيين الى ابي مسلم الخراساني، وهذا يبدو في ثورة اسحق الترك والمقنع مثلا. ويبدو لي ان الوعي الفارسي وجد في ابي مسلم رمز توثبه فاعتبره بعضهم خليفة زردشت، واعتبره اخرون المنقذ الذي حل فيه جزء الهي كما فعل المبيضة .

---

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٩٤ .

كما اننا نلاحظ ان ابرز فرق الغلاة وهم (الراوندية) او الغلاة الذين اعتقدوا بحلول جزء الهي في العباسيين كانوا يقدسون ابا مسلم وبعضهم كالرزامية اعتقدوا بحلول جزء الهي فيه وانه الامام، وشاركهم في ذلك (المسلمية) الذين اعتقدوا بانه ما مات وسيعود ليملأ الارض عدلا ويعيد السلطة اليهم. وهو موقف يبين كيف انكشف الغطاء واصبح الحزب الذي دعا لامامة العباسيين يتخذ ذلك سبيلا لتحقيق هدف اخر وهو نقض السلطان العربي والاسلامي والرجوع الى الفارسية .

ونظرة شاملة الى العلاقة بين العرب والشعوب الاخرى في اطار الخلافة العباسية تظهر كثرة الثورات في بلاد فارس في العصر العباسي الاول، ونشاط الشعوبية والزندقة في العراق مقر الخلافة،ثم في بلاد فاوس. ونشهد بصورة عامة صراعا بين الشعوب الاخرى خاصة الفرس وبين العرب من جهة، وبين المجوسية والاسلام من جهة اخرى، وهو صراع يسير في خطين متوازيين .

وكان بعضه صراعا مسلحا ضد الكيان القائم في سلسلة ثورات بين فترتي المنصور والمعتصم، وبعضه سلميا فكريا كما في حركة الشعوبية والزندقة. ويبدو هذا الصراع متشعبا ومتشابكا، ولذا لزم تمييز خيوطه لنعرف محل الشعوبية والزندقة منه .

نلاحظ مبدئيا ان الثورات التي قامت في بلاد فارس في هذه الفترة كانت ثورات غير اسلامية مهما تستر اصحابها ومهما صبغوا دعوتهم. فقد كانت ثورات خرمية (مزدكية جديدة) او زردشتية في مبادئها واهدافها، كما انها انتشرت في المناطق التي تكثر فيها الجماعات غير المسلمة. وكانت مراكزها على اطراف بلاد فارس، في خراسان وما وراء النهر (١) واذربيجان (٢)، وفي جنوب بحر قزوين (طبرستان) (٣). واذ كانت هذه الثورات

قـد انتشرت الى اجزاء اخرى من بلاد فارس فان معاقلها الرئيسة كانت على الاطراف. ورغم قلة المعلومات المتوافرة عن أطر هـذه الثورات، فاننا نلاحظ ان قادتها كانوا من العامة ، وقليل منهم من الدهاقين، وان جل انصارها من الفلاحين (٤) .

اما برامجها فهي سياسية في دعوتها الى ازالـة السلطـان العربي واحياء مجد الفرس (٥)،دينية في دعوتها الى المجوسية ومحاربتها الاسلام،(٦) اقتصادية في دعوتها لاوضاع افضل.ومن

---

(١) مثل ثورات سنباذ واسحاق الترك والمقنع .

(٢) مثل ثورة بابك الخرمي. انظر الدوري ـ العصر العباسي الاول ص ٨٦ــ٨٨. وص ١١٥ ــ ١١٩ وص ٢٣٠ ــ ٢٣٩ .

(٣) مثل ثورة المازيار. ن. م. ص ٢٤٠ ــ ٢٤٢ .

(٤) يقول المسعودي عن اتباع سنباذ «واكثر هؤلاء في القرى والضياع» مروج الذهب ج٣ ص ٢٢٠. ويقول البغدادي عن اتباع المقنع « واتباعـه اليوم في جبال ايلاق (ما وراء النهر) اكرة اهاها». الفرق بين الفرق ص ٢٤٤ــ٥. وكان جل انصار المازيار من الفلاحين. انظر الطبري ج ١٠ ص ٣٥٣ .

(٥) بشر سنباذ بنهاية السلطان العربي واعلن عن عزمه على الذهاب الى الحجاز وهدم الكعبة. (الدوري ـ العصر العباسي الاول ص ٨٦) . ويرى المقريزي وابن الجوزي ان هدف الثورات الفارسية المجوسية في العصر العباسي الاول اعادة مجد بلاد فارس. المقريزي ـ الخطط (القاهرة ١٣٢٦) ج ٤ ص ١٩٠ ــ ١، ابن الجوزي ـ المنتظم ج ٥ ص ١١٠ ــ ١١١. وجاء في الوصية المنسوبة الى جاويدان سلف بابك الخرمي ان بابك « يملك الارض ويقتل الجبابرة ويرد المزدكية ويعز به ذليلكم ويرتفع به وضيعكم » الفهرست لابن النديم ص ٤٨٢ .

(٦) ادعى اسحاق الترك «انه نبي انفذه زرادشت» . «وانه يخرج حتى يقيم الدين لهم» الفهرست لابن النديم ص ٤٨٣. ويقول البيروني عن المقنع انه «شرع لهم (اي لاتباعه) جميع مـا اتى به مزدك » الاثار الباقية ص٢١١. =

المتعذر احيانا فصل الجانب الاقتصادي عن السياسي في برامجها ، فحين دعت الخرمية الى اخذ الاراضي من الملاكين الكبار وتوزيعها على الفلاحين، لاحظت ان هؤلاء من العرب او من الدهاقين وابناء القواد و«هواهم مع المسودة» اي العباسيين (١) .

وليس هذا مجال تناول تفاصيل هذه الثورات، فلهذا مجال اخر (٢). ولكن فشلها يشعر بقوة السلطان القائم من جهة وبعدم قوة المجوسية الى الدرجة الكافية في بلاد فارس. ولكنها مع ذلك كان لها اثرها في تركيز الاتجاهات الانفصالية في تلك البلاد. وعلى كل فان هذه الثورات خارج نطاق الحركة الشعوبية .

= وقالت زوجة جاويدان سلف بابك الخرمي «ان بابك سوف يرد المزدكية» المسعودي ج ٤ ص ٩ - ويرى المقريزي ان حركة بابك، والثورات الفارسية الدينية السابقة كانت مدفوعة بالحقد على الاسلام وانها ترمي الى «كيد الاسلام بالمحاربة» الخطط ج ١ ص ١٩٠-١٩١. ويقول المسعودي ان المازيار «اقر على الافشين انه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس» المسعودي ج ٤ ص ١٦. وجاء في رسالة من اخي بابك الخرمي الى اخي المازيار، بيان لكيفية القضاء على العرب حتى «يعود الدين الى ما لم يزل عليه ايام العجم» الطبري ج ١٠ ص ٣٦٧، وانظر المسعودي - التنبيه والاشراف القاهرة ١٩٣٨ ص ٣٠٦ .

(١) انظر الطبري ج ١٠ ص ٣٥٣ .

(٢) انظر عن هذه الثورات :

Sadighi - Les Mouvements Religieux Iraniens , Paris 1938 .

E.G. Browne-A Literary History of Persia Vol , 1 .

والدوري - العصر العباسي الاول، بغداد ١٩٤٥ .

شعوبية اشراف العجم

لم يقم المسلمون الفرس بثورات مسلحة في العصر العباسي الاول. وهذا لا يعني ان الوعي الفارسي كان ضعيفا بينهم او ان تحقيق المساواة في الحياة العامة ارضى رغباتهم المعلنة باسم مبادىء الاسلام، بل ان الدلائل تشير الى عكس ذلك، لقد كان منهم الوزراء والكتاب، وكان منهم رجال الادارة والجيش، وهؤلاء يمثلونهم في الحياة العامة.

ونحن نعرف ان تاريخ الوزراء في العصر العباسي الاول هو سلسلة احتكاك وتصادم بين الخلفاء وبين الوزراء، ولم يكن الوزراء جميعا من الفرس، وان كانوا جميعا ينتسبون اليهم كأبي ايوب الموریاني الخوزي. لقد كان الخلفاء يمثلون الثقافة العربية الاسلامية الشاملة، وكانوا يمثلون السلطان العربي الاسلامي بنظر غير العرب، وهم رمز الكيان القائم . اما الوزراء فنجد بينهم من اتخذ وجهة فارسية، ومن كان يحلم باعادة السلطة الى الفرس، وهذا ينطبق على بعض القادة. وتظهر هذه الناحية في الصراع السياسي الخفي بين العرب والفرس على السلطة في العاصمة، ولعل هذا من اثار الثنائية السياسية التي اوجدها العباسيون والتي سرعان ما تبين انها ثنائية قلقة ليس لها من قوى الشد ما

يكفي لتكوين كيان سياسي متآلف متماسك، فلم تثبت لفترة من الزمن الا بجهود الخلفاء انفسهم .

البرامكة

ولعل وضع الوزراء الفرس ودورهم في الحياة العامة يبدو جليا بين فترة الرشيد والمأمون، ولم تكن الفترة السابقة لهذه الا فترة تمهيد. فالبرامكة الذين تربعوا على دست الوزارة سبعة عشر عاما تركوا اثارا بعيدة. فقد حاولوا تقريب الفرس في الادارة لحد كبير، وربما ذهبوا بعيدا في ذلك مما ولد رد فعل قويا ضدهم. فهذا يحيى البرمكي يقرب بني سهل وهم مجوس آنئذ، ويعرف المأمون بالفضل بن سهل ويطلب منه تقريبه، ويقول عنه «في كل اربعين سنة يحدث رجل، يجدد الله به دولة، وانت (يخاطب الفضل) عندي منهم» (١) .

وكأنه بهذا يمهد للفضل بن سهل ليكون خليفته في الوزارة وربما أمل منه اكثر من ذلك. والبرامكة بموقفهم هذا هددوا فكرة التماسك والتعاون الاداري بين الفرس والعرب بأن كونوا رد فعل لدى العرب وولدوا الاعتقاد لديهم بأنهم يريدون اضطهادهم، وليست قصة يزيد بن مزيد الشيباني الا مثلا على ذلك .

وجهد البرامكة ليوسعوا طبقة الكتاب وليؤكدوا اهميتها، وهؤلاء اعتبروا انفسهم حملة التراث الحضاري الفارسي ورسل الثقافة الفارسية. ولذا وقف الكتاب يسندون البرامكة ويتحمسون لهم. وحاول البرامكة بالبذل والعطاء تنشيط حركة الترجمة عن الفهلوية الى العربية، في الادب والتاريخ، وتبنوا عناصر متطرفة في فارسيتها كسهل بن هارون الذي كان من اعلام الشعوبية ومن المندفعين في كره العرب. وكان للبرامكة دور

---

(١) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٢٣٢ .

عملي واضح في العهد للمأمون بعد العهد للأمين بثماني سنوات، وبذلك اعطوا للعناصر الفارسية في العاصمة رمزا يعملون باسمه بحجة كونه «ابن اختهم» لتحقيق شيء من آمالهم الفارسية.

وانتبه الرشيد بعد امد الى دور البرامكة، فتخلص منهم، وكان ذلك صدمة حادة للطموح الفارسي لا تزال آثارها قوية في الاثار الادبية والتاريخية، وفي تمجيد (الكتاب) للبرامكة وفي مهاجمة الرشيد والدولة بعدهم، بل وذهب بعضهم حتى الى محاولة تلطيخ الاسرة العباسية في قصة متهافتة نسجوها حول العباسة .

بنو سهل

ويبدو ان احداث عصر الرشيد ادت الى مصائب في الفترة التالية. جاء الفضل بن سهل اكثر اندفاعا وفارسية من البرامكة، فقد اتخذ من قضية المأمون سبيلا لتحقيق وجهاته الفارسية. بدأ بأن نصح الامير باسم السلامة، بترك بغداد والذهاب الى مرو بصحبة ابيه الرشيد في حملته الاخيرة ضد رافع بن الليث، والبقاء هناك بين اخواله كما قال، ليبعده عن بغداد، وقام بدور حيوي في الخلاف بين الاخوين، بل وجعل المأمون يتخذ مرو عاصمة الخلافة بعد انتصاره على الامين، وولي على بغداد واليا فارسيا هو اخوه الحسن بن سهل،ولم تكن العاصمة مجرد محل للاقامة بل انها تعبر عن وجهة الدولة وعن خطوطها الاساسية . كانت بغداد عاصمة اسلامية وهي في منطقة حيوية بين مجال الثقافة العربية ومجال الثقافة الفارسية. وبغداد تعبر عن تلك الثنوية في الحياة العامة، مشاركة العرب والفرس .

اما مرو فكانت قلب خراسان، وهي مركز الحيوية الفارسية في هذه الفترة، والانتقال اليها يمثل تحولا خطيرا في اتجاه السياسة وجهة فارسية واضحة. وقد اعتبر اهل بغداد البقاء

فيها تحولا للسلطة صوب المجوسية (١) .

وقد ادرك بعض العرب ان الفضل بن سهل يعمل ليصير الملك « كسرويا » (٢) . وكان الفضل بن سهل يقدر ان وجهته لا تلتقي مع الوجهة العباسية، وانها وجهة فارسية قوية (٣) . ولذا احاط المأمون بنطاق حديدي فحجب عنه الاخبار ، وفسر الاضطرابات الناجمة عن خطته ، كثورة بغداد ، تفسيرات تخالف حقيقتها، وحاول ان يحكم الامبراطورية من مرو بمعونة اخيه الحسن بن سهل ، وان يجعل من المأمون رمزا لا اكثر ، ووجدت الاقلام الشعوبية فرصتها في فترة سلطته لتركيز هجومها على العرب (٤) .

وجاءت النذر الى المأمون من بعض القادة العرب . هذا هرثمة بن اعين يحاول تبصير المأمون بالوضع وبحقيقة وجهة الفضل وبما يدبره عليه ، فلقي حتفه غيلة بدسيسة الفضل ابن سهل (٥). وهذا خازم بن خزيمة يحذر المأمون من الفضل

---

(١) ثار البغداديون ضد سياسة الفضل بن سهل قائلين: «وقد خشينا ان تذهب هذه الدولة بما حدث فيها من تدبير المجوس » . اليعقوبي (ط . النجف) ج ٣ ص ١٧٩ .

(٢) انظر الجهشياري ـ الوزراء والكتاب ص ٣١٢ .

(٣) يروي اليعقوبي ان الفضل بن سهل كان يتمثل بالابيات التالية :

لئن نجوت او نجت ركائبي ... من غالب ومن لفيف غالب

اني لنجاء من الكرائب

ويقصد بغالب قريشا كما اوضح اليعقوبي. تاريخ اليعقوبي ج٣ ص ١٨١.

(٤) انظر الفهرست .

(٥) انظر تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٨، الجهشياري ـ الوزراء ص ٣١٧ . ويقول الطبري ان هرثمة «اراد ان يعرف المامون ما يدبر عليه الفضل بن سهل ويكتم عنه من الاخبار والا يدعه حتى يرده الى بغداد، ليتوسط لسلطانه ويشرف على اطرافه» الطبري ج ٣ ص ٢٣٦ .

ابن سهل ويقول «الله الله يا امير المؤمنين، لا يخدعنك عن دينك وملكـك » (١) .

وسرى التذمر من السياسة الفارسية الى الناس ، وادركت الجماعات العربية والمؤيدة في بغداد ان خطوات الفضل بن سهل تعني سلبها السلطة ، وثارت على حاكمها الفارسي وعلى دسائس الفضل بن سهل،وبايعت خليفة جديدا. وثار نصر بن شيت في الجزيرة (القسم الشمالي من العراق من تكريت والانبار شمالا) (٢) احتجاجا على الوجهـة الفارسيـة و « محاماة عن العرب » .

واشتعلت الثورة في العراق والجزيرة العربيـة حول الرايـة العلويـة ما دام الخليفـة العباسي يسير في دائرة فارسية . ولـم يبق للمأمون الا ان يخرق الطوق وان يبطل سياسة الفضل بـن سهل وان يعـود الى بغداد لئلا يفقـد كل شيء . فكانت نهايـة اخطـر ممثل للشعوبيـة على الصعيد الوزاري .

ولئن فشل الفضل بن سهل في نقل السلطة الى الفرس ،فان طاهـر بن الحسين احد قادته نجح في وضع اسس اول امـارة فارسيـة بعد الفتح الاسلامي . لعب طاهر بن الحسين الدورالاول في تمزيق قوات الاميـن ، وكان اليد الحديدية في حصار بغداد حتى دك بعض محلاتها دكا ، وكان المسؤول عـن قتل الاميـن بعد اسره .

وقد ارسله الفضل بـن سهل الى الولايات الغربيـة لانـه يريـد يدا حديدية تقمع الثورات هناك ، ولانه يخشى طموحه فـي مرو ، ولكـن طاهـر رأى في ذلـك استهانـة به . وطاهر بـن الحسين خراساني ، يتحمس لفارسيته ولا يطمئـن للعرب او

---

(١) انظر الجهشياري ـ الوزراء ص ٣١٣ .

(٢) قال نصر بن شيت «ان هواي مع بني العباس وانما حاربتهم محاماة عـن العرب ولانهم يقدمون عليهم العجم» انظر احمد فريد الرفاعـي، « عصر المأمون » ج ١ ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤ .

للمأمون سيده (١) .

طاهر بن الحسين

وبعد عودة المأمون الى بغداد توسل طاهر بن الحسين بوسائل ملتوية للحصول على ولاية خراسان ، ورغم شك المأمون بنواياه فانه نجح في مسعاه . وكانت خراسان مضطربة ، وترى في عودة السلطة الى بغداد ضربة شديدة لآمالها . وعمل طاهر بن الحسين على تركيز كيانه في خراسان ، وكان لاسرته نفوذ محلي قوي ، وتدرج في خطته الى الخروج على المأمون . ولكنه توفي فجأة

---

(١) اعرب عبدالله بن طاهر عن هذه النزعة الفارسية في قصيدة يفخر فيها بنسبه ، ويتبجح بقتل الامين ، فقال :

انا من قد تعرفي نسبه	سلفي الغر البهاليل
مصعب جدي نقيب بني	هاشم والامر مجهول
وابي من لا كفاء له	من يساوي مجده قولوا
انظر المخلوع كلكله	وحواليه القاويل
فثوى والترب مضجعه	غال عنه ملكه غول
قاد جيشا نحو نائلة	ضاق عنه العرض والطول
من خراسان مصمم	كليوث ضمها غيل

قال محمد بن يزيد الاموي : وكنت لما بلغتني هذه القصيدة امتعضت للعرب وانفت أن يفخر عليها رجل من العجم ، لانه قتل ملكا من ملوكهم بسيف اخيه لا بسيفه فيفخر عليها هذا الفخر ويضع منها هذا الوضع فرددت عليه قصيدته فقلت :

قاتل المخلوع مقتول	ودم القاتل مطلول
يا ابن بنت النار موقدها	ما لحاديها سراويل
اي مجد لك تعرفه	او نسيب لك بهلول
ما جرى في عود سالفكم	ماء مجد فهو مدخول
قدحت فيه اسافله	فاعاليه مهازيل

انظر القصة في التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ج١ ص ٦٦ ـ ٦٧

بعد بضعة ايام . الا انه ، كما يبدو ، نجح في تثبيت سلطته لدرجة ان الولاية اعطيت لابنائه من بعده ، وهكذا تكونت اول امارة فارسية (في خراسان) هي الامارة الطاهرية . وكانت هذه بداية سلسلة من الامارات الفارسية التي تتمتع بحكم ذاتي وترتبط اسميا بالخلافة. وكان نجاح طاهر نتيجة لطموحه الفارسي ولانتشار الوعي الفارسي .

الامارات الفارسية

وحيث فشلت حركات الفرس من الفلاة ومن اتباع الديانات المجوسية ، نجح بعض الفرس المسلمين في تكوين امارات فارسية لها دورها في بعث الحياة الفارسية وفي احياء التراث والادب الفارسي .

وفي ظل هذه الامارات ظهرت طلائع الادب الفارسي (١) . فقد نظم الشعر الفارسي زمن الصفارين ، وترد الاشارة الى شاعرين من تلك الفترة ، وهما فيروز المشرقي وابوسليك الجرجاني(٢). ويرد اسم حنظلة الباذ عيسى (ويحتمل انه توفي سنة ٢٢٠) من عصر الطاهريين وكان له ديوان بالفارسية كما يظهر (٣) .

وكان للعصر الساماني دور ملحوظ في قيام الادبالفارسي. الحديث . فقد حاول السامانيون احياء النظم السامانية في

---

(١) هنالك اشارات الى بداية النظم في زمن المامون ، فيرد ذكر قصيدة لشاعر اسمه عباس ، ويرد اسم شاعر فارسي اسمه عباس طرخان ،ويروى ان محمد بن البعيث الذي ثار في اذربيجان زمن المامون نظم شعرا بالفارسية ، انظر بارتولد ـ الحضارة الاسلامية ص ٦٧ .

(٢) علي اكبر فياض ـ محاضرات عن الشعر الفارسي والحضارة الاسلامية في ايران ص ٥ ، و ص ٨ .

(٣) ن.م. ص ٦ ـ ٧ .

الادارة ، وسلكوا سياسة تتمثل فيها النزعة القومية الفارسية مع مراعاة الاسلام . وفي عصرهم ترجم كتابا الطبري في التاريخ والتفسير الى الفارسية ، بعدما افتي بجواز ذلك كما افتي بجواز الصلاة باللغة الفارسية . وفي عصرهم جمعت تواريخ الفرس القدماء في كتاب (الشاهنامه) او (شاهنامه منصوري) . وحاول الشاعر الدقيقي ابو منصور بن احمد شاعر العصر الساماني نظم الشاهنامه شعرا ولكنه قتل قبل ان يتم عمله.

وكان الفردوسي ، الشاعر العظيم نتاج البيئة الثقافية السامانية ، وهو الذي نظم الشاهنامه المشهورة .

ومن شعراء السامانيين ، الشاعر الرودكي السمرقندي الذي نظم كليلة ودمنة شعراء وهذا بداية الشعر القصصي.

وقد بدت من بعض الشعراء السامانيين آراء فيها عاطفة زردشتية . فالشاعر الرودكي السمرقندي يقول « لا معنى لتحويل القبلة للاسلام والقلب منجذب الى القدسية المجوسية ». وعبر عن السماء والارض بانهما ابو الانسان وامه وهو يرمي بذلك الى اراء مجوسية . وعبر عن صلته بالمجوسية حين قال انه يفضل شفتي حبيبه ودين زردشت على كل شيء .

وبهذا يمكن القول ان بدايات الثقافة الفارسية الاسلامية ترجع الى العصر الساماني (١) .

الافشين

ولنعد للعاصمة (سامراء) لنرى مثلا آخر لشعوبية الاشراف الفرس. فهذا الافشين حيدر بن كاووس من اسرة امراء اشروسنه ، يرتفع في المناصب العسكرية زمن المعتصم حتى يصبح قائد قواته المسلحة . ولن نعلق على دوره الغامض في ثورة

---

(١) ن.م. ص ١٣ ـ ١٧ وص ٢٦، بارتولد ـ الحضارة الاسلامية ص٦٧-٧١.

بابك الخرمي ، ولكننا نجده وهو مسلم ، كما هو مفروض ، يحتفظ بكتبه الدينية القديمة ، ولا يختتن ويحتفظ ببعض الطقوس المجوسية . ويتضح من موقفه من القائد العربي ابي دلف العجلي انه شديد الكره للعرب ، وانه لا يستطيع رؤية مثل هذا القائد في الجيش، حتى جره الى داره واراد قتله لولا ان تدارك احمد ابن ابي دؤاد (قاضي القضاة) الموقف .

واليك بعضا مما دار في المحاورة بين ابن ابي دؤاد والافشين في داره لتأخذ فكرة عن الموضوع . قال ابن ابي دؤاد « فقلت له اي (الافشين) القاسم .. بن عيسى فارس العرب وشريفها فاستبقه وانعم عليه . فان لم تره لهذا اهلا فهبه للعرب كلها ، وانت تعلم ان ملوك العجم لم تزل تفضل على ملوك العرب ومن ذلك ما كان من كسرى الى النعمان حتى ملكه . وانت اليوم بقية العجم فانعم على شريف من العرب بالعفو عنه » (١) . وانت ترى التقابل بين العرب والعجم ، وتحس بن الافشين يرى نفسه بقية ملوك العجم وتحس بنطاق التسلط الشعوبي .

وكان الافشين واسع الطموح ، وتشعرك وقائع محاكمته انه كان يحلم باعادة المجد الفارسي بعد ضرب الاتراك والعرب وهم قوام جيش المعتصم . ويبدو لي ان الافشين كان يفكر بمثال طاهر ابن الحسين، وينظر الى تكوين امارة في منطقة ما وراء النهر، كما فعل آل طاهر في خراسان . وفعلا حافظ الافشين على صلاته الوثيقة بأهالي اشروسنه (في ما وراء النهر) وكان رغم اسلامه يتقبل الرسائل منهم باستهلالها المجوسي«الى اله الالهة من عبده فلان » (٢) .

وكان يرسل ما تجمع لديه من اموال وذخائر الى هناك وخاصة الاموال الكثيرة التي حصل عليها خلال الحملة ضد

---

(١) التنوخي ــ الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ص ٦٨ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٦٦ .

بابك الخرمي . ويبدو ان الافشين كان يفكر بخراسان ومن هنا اختلافه مع آل طاهر ، كما ان صلاته بالمازيار اصبهبذ طبرستان، تدعو للظن بأنه كان يفكر بدولة فارسية (١) .

ولا يهمنا ان نتحدث عن مؤامرة الافشين الاخيرة على المعتصم او على بعض قادته ويمكن الرجوع اليها في مصادرها ، ولكن المهم لدينا هو ان الافشين يمثل هذا الصنف من الاشراف الفرس الذين احتضنتهم الخلافة العباسية ، ولكن نزعتهم الفارسية جعلتهم يحاولون استغلال السلطان العربي الاسلامي لضرب هذا السلطان والعمل على احياء الكيان الفارسي .

ولعلك تلاحظ ان كلا من الفضل بن سهل والافشين كان حديث عهد بالاسلام ، ويورد الطبري رسالة من اخي الافشين الى اخي المازيار جاء فيها « انه لم يكن ينصر هذا الدين الابيض (اي المجوسية) غيري وغيرك وغير بابك (الخرمي) ، فأما بابك فانه بحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت ان اصرف عنه الموت ، فأبى حمقه الا ان دلاه فيما وقع فيه . فان خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيري ، ومعي الفرسان واهل النجدة والبأس . فان وجهت اليك لم يبق احد يحاربنا الا ثلاثة العرب والمغاربة والاتراك . والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس . وهؤلاء الذباب ، يعني المغاربة ، انما هم اكلة رأس. واولاد الشياطين، يعني الاتراك ، فانما هي ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم ويعود الدين الى ما لم يزل عليه ايام العجم » (٢). وهي رسالة تنبي عن شدة حقد الافشين على العرب وعن اتحاد المجوسية بالمجد الفارسي في تفكير الافشين وفي طموحه .

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٣ – ٣٦٤ ، العيون والحدائق (خلافة المعتصم) ص ٦٢ – ٣ .

(٢) الطبري ج ١٠ – ص ٣٦٧ .

هذا هو حال بعض الاشراف الفرس الذين ساهموا في الحكم، والذين وجدوا فيه سبيلا للعمل على اعادة مجد بلاد الفرس فحل الدس والاصطدام محل التعاون، وانهار الاساس لتبلى الدولة العباسية بالترك منذ زمن المعتصم . وهو حال يشعر بقوة الوعي بين الشعوب الاخرى ، وخاصة الفرس . فلم ترضها المشاركة في الحكم ولم يرضها ان تكون جزءا من دولة موحدة .

شعوبية الادباء والكتاب

وحين ننتقل من الاشراف الى الجماعات الاخرى ، يطالعنا الادباء والكتاب الذين حملوا راية الشعوبية واعلنوا الاتجاه . وكان العصر العباسي ، في مطلعه خاصة ، فترة رفع فيها الغطاء وتكشفت الميول والاتجاهات التي كانت متسترة او مكبوتة لتندفع بعنف وتطرف . وهذا طبيعي في الفترات التي تعقب الثورات . ووجدت الجماعات الشعوبية فرصتها ، حين اعتقدت ان الصرح العربي قد انهار تحت ضربات قوات اعجمية ، من الخراسانيين بالدرجة الاولى ، كما ان العباسيين ارادوا اظهار المساواة الاجتماعية والسياسية بين شعوب الخلافة ، وارادوا تألف الشعوب غير العربية وخاصة الفرس ، وسعوا لتكوين دولة اسلامية تتعاون فيها الشعوب المختلفة ، فافسحوا المجال واسعا امامها لتظهر نشاطها ، فكريا وغير فكري . ويبدو ان العباسيين شجعوا الجماعات التي كانت تتظاهر بالدعوة الى المساواة ، وبينها مجموعات من غير العرب ، تبين بوضوح انها شعوبية النزعة .

وبنفس الوقت قرب العباسيون الفقهاء ، واظهروا اعتمادهم عليهم واعلنوا عن استنادهم الى الشريعة في الحكم ، وحاولوا فهم

متطلباتها وتطبيقها احيانا في الحياة العامة كما يتبين من طلبهم لأبي يوسف وضع كتاب في احكام الضرائب، ومن اتصالهم بمالك بن انس لوضع مدونة فقهية شاملة . وجعل العباسيون حماية الاسلام من اهدافهم الاساسية ، وهم يدركون ان الاسلام قاعدة السلطان، وان التهجم عليه او المروق منه ينطوي على تهديد للكيان القائم . ومن هنا جاء موقف العباسيين الحازم من الزندقة بعد فترة قصيرة .

ثم ان العباسيين بدورهم لقوا خيبة مريرة في آمالهم بأن تحقيق المساواة يضمن لهم التعاون والتأييد الكليين من غير العرب ، فقد جابهوا الثورات التي المحنا اليها ، وجابهوا حركة الزندقة التي هددت كيانهم ، وشهدوا النشاط الشعوبي.

ولكننا لن نستبق الحوادث ، فان الجو العباسي بدأ مفتوحا وتكشف بالتدريج عن النزعات والميول والاهواء ، بل ان لدينا ما يشير الى ان العباسيين كانوا يتسامحون في البدء مع كل حركة لا تهدد سلطانهم بما في ذلك نشاط بعض الزنادقة (١) . حتى اذا اتضحت اخطارها اتخذوا موقفا آخر . ومع ذلك فان الموقف من الشعوبية لم يكن واضحا احيانا لان الحركة تمثلت بأشكال ومواقف مختلفة .

والواقع ان الشعوبية بمفهومها الدقيق لم تنكشف تماما الا في العصر العباسي الاول ، وعندئذ لا نرى مجالا للفصل بين الشعوبية والتسوية ، بل يختلط اللفظان كما نرى في كتابات ابن قتيبة والجاحظ . يقول الجاحظ في (البيان) ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية » (٢) ويعود فيقول « قالت الشعوبية ومن يتعصب

---

(١) انظر الاغاني (ط . الساسي) ج ١٤ ص ٨١ عن صلات مطيع بن اياس بدار الخلافة زمن المنصور .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ٥ .

للعجمية» (١) ويعتبر ابن عبد ربه الشعوبية واهل التسوية جماعة واحدة فيقول « قالت الشعوبية وهم اهل التسوية» (٢).

واما اللسان فيعطي تعريفا واضحا للشعوبية حين يقول « الشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على غيرهم » .

عندما تظهر الشعوبية واضحة ، نرى العصبية الضيقة لديهم ، ونرى حقدا على العرب وحسدا لهم ، وعملا ضدهم .

وقد ظهرت هذه المقاومة للعرب والهجوم عليهم لدى الفرس بالدرجة الاولى . وتمثلت في طبقاتهم المختلفة باشكال متباينة ، ولكن هذا لا يعني انها شملت الجميع ، بل انها تمثلت في جماعات من مختلف الفئات . وقد كان التمسك بالدين رادعا عن الاندفاع في تيار الشعوبية كما ان عوامل اخرى اثرت في نفس الاتجاه ، وقد لاحظ ابن قتيبة ذلك حين قال في معرض حديثه عن الشعوبية ، « فأما اشراف العجم وذوو الاخطار منهم واهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ويرون الشرف نسبا ثابتا» (٣). ومن الاكيد ان المتدينين وقفوا بعيدا عن الشعوبية ، وربما صدق ذلك على بعض الاشراف ، ولكن البعض الآخر سار في التيار الشعوبي كما لاحظنا .

العامة

ويبدو ان الشعوبية باشكالها وجدت تأييدا لدى العامة ، بانضمامهم الواسع الى حركات الغلو ، وفي مشاركتهم في كثير من الحركات ضد العرب . ويرى ابن قتيبة ان العامة اكثر اندفاعا

(١) ن.م.ج ص ١٣٠، ابن قتيبة ـ كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص ٣٤٤ .

(٢) ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج ٣ ص ٤٠٣ ـ ٤ .

(٣) رسائل البلغاء ـ ابن قتيبة ـ كتاب العرب ـ ص ٣٤٥ .

في الشعوبيــة من غيرهم ، فهــو يقول « ولم ار في الشعوبيــة ارسخ عداوة ولا اشـد نصبا للعرب من السفلة والحشوة واوباش النبط وابنــاء اكرة القرى » (١) . وابن قتيبة واضح في تصنيفه للناس الى اشراف والى هذه الفئات من العامة . بل ويذهب ابــن قتيبة الى ادخــال جماعات من الكتاب في العامة ، فيشكو بمرارة من ايغالهم في العصبيــة وفي بغض العرب ومهاجمتهم ، وهنا نأتي الى دور الكتاب والادباء .

احياء الثقافــة الفارسيــة

ظهر نشاط الادباء والكتاب في مجالات مختلفــة تؤدي الــى نهايات متآلفــة في هدف واضح وهو محاولة تاكيــد التـــــراث القديم ، والتنكــر للتراث العربي ، والعودة الى الثقافة القديمــة في الشرق الادنى . وقد يظــن ان هذا التراث وتلك الثقافــة كانت فارسيــة صرفة ، ولكــن الدراســات التاريخيــة تدل علــى ان الاساس هــو الحضارة السامية التــي اقتبس الفرس نصيبا كبيرا منهــا واضافــوا شيئا اليهــا ، ولكنهم انفردوا بالديانات المجوسية (الزردشتية والمانويــة والمزدكية) وهي في جوهرها فارسية . ومن المنتظــر ان تكــون الثقافــة القديمــة التي يريدهــا الكتــاب مــن الحضارتيــن الساميــة والفارسية ، ولكــن التأكيــد كله كان على الحضارة الفارسية وعلى المثل والديانات الفارسية .

وبذل الكتاب والادباء من الشعوبيين كل سبيل لبعث الثقافة الفارسية ، وحاولوا بث الطابع الفارسي في الادارة والمراسيـــم العباسية ، هذا مع تقليل شأن الثقافــة العربية الاسلاميــــة والاستهانــة بهــا . وكان موقفهم يستنــد الى العصبية الجامحة لا الى الادراك . قال ابن قتيبة « واعاذنا الله مــن فتنة العصبيــة

---

(١) ن.م. ص ٣٤٥ .

وحميـــة الجاهليـــة وتحامل الشعوبيـــة ، فانهـــا بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عـــن كل فضيلة وتلحق بهـــا كل رذيلة، وتغلـــو في القول وتسرف فـــي الذم وتبهت بالكذب وتكابـــــــر بالعصيـــان » (١) .

واتخذ نشاط هؤلاء سبلا مختلفة ، منها اكثارهم من الترجمة عـــن الفارسيـــة في موضوعات تتصل بصميم الـــذات الفارسيـــة كالادب والتاريخ والتقاليـــد والمثل . وقد شهـــد العصر العباسي الأول حركـــة ترجمـــة واسعـــة عـــن الفارسية ،وهي مستقلة عـــن حركـــة الترجمـــة التي تبناهـــا الخلفاء . ومن امثلة هذه الترجمات (خداينامه) أو سيـــر الملوك (ملوك الفرس) ، وهو كتاب ينطوي على كثيـــر من الاساطيـــر والمواعظ والتمجيد ويغلب عليـــه عنصر القصة والاسطورة . ونظرا لخطورته لدى الفرس فاننا نسمع عـــن ثمانية صور لـ (خداينامه) ، بعضهـــا مترجم والبعـــض الاخـــر مؤلف ومترجم . ومنهـــا (الآيين نامه) او المراسيم والتقاليـــــــد الساسانية ، وكتاب (مزدك) وهو يتضمن ادبا ومثلا اخلاقيـــة مجوسية لا تأتلف والمفاهيم الاسلامية، وقد ترجمه ابن المقفع كما أعـــد ابان بن عبد الحميد اللاحقي ترجمة اخرى له . ومنها كتاب التاج في سيرة انوشروان وكتاب (كليلة ودمنة) الذي تصرف ابن المقفع في ترجمته واضاف اليه بابا (باب برزويه) للترويج للمانوية كمـــا اوضح البيروني . ومنهـــا كتاب سيرة الفـــرس المعروف بـ (اختيار نامه) نقله اسحق بن يزيد (٢) . هذا وترجمت بعض الكتب الدينية ، وخاصـــة الكتب المانويـــة كمـــا نفهم من المسعودي وابن خلكان وابن النديم (٣) . الذي حفظ لنا قائمة ببعض هذه

---

(١) ن.م. ص ٣٤٤، وانظر الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٩ـ٣٠ .

(٢) ابن النديم ـ الفهرست ص ٢٣٢، ص ١٧٢، ص ٣٤٢ .

(٣) انظر ابن النديم ص ١٧٣ ، المسعودي ـ مروج الذهب (ط . باريس) ج٨ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ، ابن خلكـان (نشر محيي الدين عبد الحميد)ج١ ص٤١٢.

الكتب المترجمة .

لم يكتف الكتاب بالترجمة ، بل انهم وضعوا الشيء الكثير ونسبوه الى الفرس القدماء ليضفوا عليهم من الامجاد ما يساعد على احياء الوعي الفارسي وعلى التقليل من شأن الحضارة العربية الاسلامية . يقول الجاحظ « ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التي بايدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة ، اذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وابي عبيد الله وعبدالحميد وغيلان يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير» (١) .

بل ان بعض هذه المؤلفات الموضوعة نسبت الى بعض الاعلام لتكتسب قيمة خاصة ، والا فكيف نفسر وجود كتاب (التاج) الذي ينسب للجاحظ ، وهو بمحتواه كتاب (آيين) يتصل بالمراسيم الساسانية مع اضافات تتصل بالخلفاء الامويين والعباسيين، هدفه ان يظهر هؤلاء تابعين ومقلدين للملوك الفرس . وكيف ننتظر من الجاحظ الذي بذل جهودا كبيرة لرد الشعوبية ان يعمل ذلك؟ الم تكن نسبة الكتاب اليه فنا جديدا من فنون الشعوبية ؟

وجهد الكتّاب ان يبينوا (كما ترى في كتاب التاج) ان الحضارات القديمة خاصة الساسانية اساس كل شيء ، وان الحضارة العربية الاسلامية لا تعدو ان تكون اخذا عن تلك الحضارة. وذهبوا الى حدود بعيدة في ذلك، فهذا ابن وحشية، وهو نبطي ، يؤلف كتاب (الفلاحة النبطية) ليظهر رقي الزراعة عند النبط في القديم وليظهر ان اساس فن الزراعة يعود اليهم . وحين تقرأ الكتاب تجد فيه تفصيلات واسعة عن اساليب الزراعة بعضها لا يبعد كثيراً عن السحر والطلاسم (٢) .

---

١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٩ .

(٢) توجد مخطوطة لكتاب (الفلاحة النبطية) لابن وحشية في مكتبة بودليان باكسفورد وقد اطلعت عليها منذ سنين .

وحاول الكتاب بصورة خاصة ان يحيوا المراسيم الفارسية والتقاليد الادارية ، ووجدوا استعدادا وتشجيعا من بعض الوزراء الفرس كالفضل بن سهل. جاء في الجهشياري « وكان ذو الرياستين (الفضل بن سهل) يجلس على كرسي مجنح ويحمل فيه اذا اراد الدخول على المأمون ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فاذا وقعت وضع الكرسي ونزل عنه فمشى وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون ، ثم يسلم ذو الرياستين ويعود ويقعد عليه ، وانما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الاكاسرة . فان وزيرا من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين ايديها عليه » (١) . ولعل الجناحين يمثلان اجنحة اهورامزدا اله الخير عند الزردشتية .

واراد الكتاب ان يؤكدوا على الارث الثقافي الفارسي في تكوينهم الثقافي وان يوجهوا الناشئة اليه وان يصرفوا الاذهان عن الثقافة العربية الاسلامية . جاء في البيان والتبيين « قالوا (اي الشعوبية) ومن احب ان يبلغ في صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقرأ كتاب كاروند ، ومن احتاج الى العقل والادب والعبر والمثلات والالفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فلينظر في سير الملوك ، ثم يشير الى تبجح الشعوبية برسائل الفرس وخطبها والفاظها وباليونان ورسائلها وخطبها وعلمها وحكمها ، وبكتب الهند في حكمها وأسرها وسيرها وعلمها » (٢) . ويعطي الجاحظ صورة حية لموقف الكتاب من اعتزاز بآثار الفرس الثقافية ، ومن ترويج لها ، ومن ازورار عن الثقافة العربية ومن تجريح للدراسات العربية الاسلامية من حيث انهم يتشدقون بحكم بزرجمهر وبسياسات انوشروان وبعبقرية الفرس ، فهو يبين ان الناشيء منهم متى « وطيء مقعد الرئاسة

---

(١) الجهشياري ــ الوزراء والكتاب ص ٣١٦ .

(٢) الجاحظ ــ البيان والتبيين ج ٣ ص ١٤ .

وصارت الدواة امامه ، وروى لبزرجمهر امثاله ولأردشير عهده، ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع ادبه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ، انه الفارق الاكبر في التدبير » ثم يكون « اول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه، والقضاء عليه بتناقضه، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الاخبار (اي التاريخ العربي) وتهجين من نقل الاثار » .

التشكيك بالثقافة العربية

يتخذ الكاتب هذا الموقف اذا اطمأن ، اما اذا حذر العيون فانه يتخذ موقف المشكك بالنصوص الاسلامية ، فهو « يرجع بذكر السنن (الحديث) الى المعقول ، وبحكم القرآن الى المنسوخ ونفي ما لا يدرك بالعيان . وشبه الشاهد بالغائب ، لا يرتضي من الكتب الا المنطق ولا يحمد الا الواقف ولا يستجيد منها الا السائر » . وبهذا يبين اسلوب التشكيك الذي يتبعه بعض الكتاب ليزعزعوا العقائد وليربكوا المفاهيم . ثم يذكر الجاحظ موقفهم في تجريح اعلام الثقافة العربية الاسلامية ، اذ يقول « فان استرجع احد اصحاب الرسول (ص) فتل عند ذكرهم شدقه ولوى عن محاسنهم كشحه ، وان ذكر شريح جرحه ، وان نعت له الحسن استثقله ، وان وصف له الشعبي استحمقه ، وان قيل له ابن جبير استجهله ، وان قدم عنده النخعي استصغره ، ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة اردشير بابكان وتدبير انوشروان واستقامة البلاد لآل ساسان » (١) .

وهو موقف يشعرك بتصغير شأن العرب وثقافتهم حتى في الاسلام ، وبأنه لم يسلم من تهجم شعوبيي الكتّاب حتى القرآن والحديث . ويبدو ان الكتاب على تضلعهم بالعربية وادبها كانوا

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ، باعتناء يوشع فنكل ص ٤٢ ـ ٤٣ .

لا يعنون باصول الثقافة العربية الاسلامية ، بل ان الجاحظ يتهمهم في تكوين ثقافتهم ويقول . « انه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره ولا علمه مسيره ، ولا التفقه في الدين شعاره ولا الحفظ للسنن والآثار عماده » . وقد يكون في قوله بعض التطرف، فهو يعترف بوجود البعض منهم ممن يهتم بالحديث والفقه، ولكنهم قلة، وان وجد أحد منهم نفر منه زملاؤه واستثقلوه وتخلوا عنه (١) .

ومن هذا ترى ان الكتاب بذلوا مجهودا كبيرا لطبع الادارة العباسية وثقافة اصحابها بطابع اعجمي ، كل ذلك في ظل دولة عربية اسلامية .

ومن ناحية اخرى ، اندفع الشعوبيون في الكتابة في مثالب العرب وفي الحط منها وراحوا يتلمسون كل ما يعينهم على ذلك . ويوجز ابن قتيبة موقف الكتاب بقوله « فان هو (اي الكاتب الشعوبي) عرف خيرا ستره ، وان ظهر حقره ،وان احتمل التأويلات صرفه الى اقبحها ، وان سمع سوءا نشره ، وان لم يسمعه نفر عنه ، وان لم يجده سخر منه » (٢) .

لدينا اشارات الى بعض المؤلفات ، وبعض النتف المبعثرة . فهذا علان الشعوبي، وكان راوية عارفا بالانساب والمثالب، الف كتاب الميدان في المثالب « هتك فيه العرب واظهر مثالبها » . وله عدة كتب في مثالب قريش ، وتيم بن مرة بن كعب وبني اسد ابن عبد العزي وبني مخزوم وعبد الدار بن قصي وغيرهم (٣). وكان سعيد بن حميد بن البختكان (شديد العصبية على العرب) وله من الكتب كتاب «فضل العجم على العرب وافتخارها » (٤)

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ، ص ٤٢ .

(٢) رسائل البلغاء ص ٣٤٥ ـ ٦.

(٣) انظر ابن النديم ـ الفهرست ص ١٥٣ ـ ١٥٥ .

(٤) ن.م. ص ١٧٩ .

واكثر الجهمي من المثالب « وتناول جلة الناس » ، وتطاول في هجومه على العمريين والعثمانيين « فذكر سلفهم بأقبح ذكر فقال له بعض الهاشميين في ذلك فذكر العباس بأمر عظيم » ، فعاقبه المتوكل . وله كتاب في المثالب (١) والف ابو عبيدة معمر بن المثنى في المثالب واكثر في ذلك ، واورد في شرحه للنقائض الشيء الكثير منها .

وكان سهل بن هارون « شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب وله في ذلك كتب كثيرة » (٢). نكتفي بذكر هذه الامثلة ، والروايات في كتب الادب والتاريخ كثيرة وغريبة .

---

(١) الفهرست ـ ابن النديم ـ ص ١٦٢ .

(٢) ن.م. ص ١٧٤ .

الشعوبية في الحقل الدينـي

(الزندقـة)

المانويـة

وبجنب هذه الفعاليات الادبية والفكرية للشعوبية ، نـرى النشـاط المانوي ، وهو نشاط فكري في الحقل الديني . فنحـن نلاحظ فعاليـات واسعـة للتبشير بالديانـة المانوية بصـورة متسترة، عمل اصحابها مستندين الى مبدأين اساسيين فيهـا، اولهما التأويل الذي يمكن من تفسير النصوص الدينية لاصحاب الديانات الاخرى وخاصة الاسلام تفسيرات تخرجهـا الى مدلولات ومفاهيم مانوية ، وثانيهمـا المزج الداخلي او الاخذ مـن الديانات والمذاهب الاخرى وصهر ذلـك في البوتقة المانوية لتعزيزهـا ولكسب الآخريـن اليهـا .

ولما كانت الديانات الفارسية القديمة اقوى مثل للـذات الفارسية المجوسية ، فان الدعوة اليهـا تنطوي عـلى وعـي فارسي بين المجوس، وعلى جهد لمكافحة الاسلام وحملته وخاصة

العرب. وقد استغل المانوية بعض الشبه الظاهر بين بعض طقوسهم والشعائر الاسلامية كالصلاة والوضوء من جهة ليستروا مانويتهم ، كما تظاهروا بالرجوع الى العقل والى التفسير العقلي للاسلام ليخفوا حقيقتهم ويبثوا آراءهم . ولذا نجد اسم الزندقة ـ او الانحراف عن الاسلام ـ يغلب عليهم .

وهم في الاساس يرون في هدم الاسلام من الداخل السبيل لتحقيق اهدافهم، ويوضح السيدالمرتضى اسلوب الزنادقة ويقول « فقد نشأ جماعة ممن يتستر باظهار الاسلام، ويحقن باظهار شعاره والدخول في جملة اهله ، دمه وماله ، زنادقة ملحدون . وبلية هؤلاء على الاسلام واهله اعظم واغلظ ، لانهم يوغلون في الدين ويموهون على المستضعفين بجاش رابط وراي جامع ، فعل من قد امن الوحشة ووثق بالانسة ، بما يظهره من لباس الدين هو منه على الحقيقة عار » (١) .

ولا نريد هنا ببحث الزندقة ، الا ان نشير الى التقاء خطها مع الشعوبية فيما تنطوي عليه من وعي فارسي ،وفي كرهها للعرب، وفي سعيها لنسف الكيان عن طريق هدم الاسلام من الداخل.

الزندقة تعادي الاسلام والعروبة معا

ولذا نجد الشعوبية تنتهي في كثير من الحالات بالخروج على الاسلام وبالزندقة ، فهي تبدأ من التهجم على العرب الى مهاجمة العربية وتنتهي بالهجوم على الاسلام. وقد ادرك الجاحظ الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة، حين قال : «فانما عامة من ارتاب بالاسلام انما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فاذا ابغض شيئا أبغض اهله، وان ابغض تلك اللغة ابغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام اذ كانت العرب

---

(١) امالي السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٧ ـ ٨ .

هي التي جاءت به وكانوا السلف» (١) .

هنا يبين الجاحظ الترابط بين العروبة والاسلام، كما يبين كيف ان العداء للعروبة يؤدي الى الزندقة في كثير من الاحيان، وهو يبين في محل اخر كيف ان الشعوبية تؤدي الى التجاوز على الدين والى تجاوز كافة القيم. ويقول : «ثم انك لم تر قوما اشقى من هؤلاء الشعوبية ولا اعدى على دينه ولا اشد استهلاكا لعرضه ولا اطول نصبا ولا اقل غنما من اهل هذه النحلة » (٢). ويوضح ابن قتيبة ان الشعوبية تدفع اصحابها الى الغلو في القول، والى الاسراف في الذم، وانها «تكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف، وتغضي من النبي (ص) اذا ذكر بالشيء وتطرق منه على القذى وتبعد عن الله بعدها ممن قرب واصطفى » (٣) .

ويلزمنا ان نلاحظ ان العروبة بنظر الاعاجم، ترتبط ارتباطا كليا بالاسلام حتى ان البعض يعتبر المسلم من غير العرب عربيا. فحين وعد اشرس بن عبدالله السلامي (امير خراسان لهشام بن عبد الملك) باعفاء من يسلم من الجزية وكثر الداخلون في الاسلام، شكا الدهاقين الفرس (النبلاء المحليون) قلة وارد الجباية، وكتبوا الى اشرس «ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا» (٤) اي مسلمين .

وكان الفرس المجوس يسمون الاسلام في العصر العباسي (الدين الاسود) لان شعار العباسيين هو السواد.

وهذه النظرة لها جذورها، كما اعرب الجاحظ في اشارة عابرة حين ذكر «الشعوبية والازادمردية (اي الاحرار) المبغضون

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ١٤ .

(٢) ن.م. ج ٣ ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٣) رسائل البلغاء ص ٣٤٤ .

(٤) الطبري ج ٣ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .

لآل النبي (ص) واصحابه، ممن فتح الفتوح وقتل المجوس وجاء بالاسلام» (١). فالعرب هم الذين حملوا راية الاسلام الى الشعوب الاخرى، واعطوا الاسلام نطاقه الجغرافي الاول بالفتوحات. وصحب انتشار الاسلام توسع العربية اذ نزل القرآن بلسان عربي مبين، وجاء الحديث بالعربية الرائقة، وقام العرب بالدور الاول في وضع خطوط اللغة وفي رسم المذاهب الفقهية، وعربوا الدواوين والادارة في صدر الاسلام وبذلك مهدوا لسيادة العربية. وعمل العرب بجد وحماسة لتكوين العلوم العربية والاسلامية ورسم اطارها العام الى ان جاء دور الشعوب الاخرى لتشارك في هذه الثقافة فلما ساهمت تلك الشعوب فعلت ذلك باللغة العربية .

وكان العرب، او قادتهم، يشعرون بعمق وايمان بأنهم حملة رسالة، هي رسالة الاسلام، وانهم لم يخرجوا لمجرد الفتح او الغنيمة. وانعكست هذه النظرة في حياتهم وتنظيماتهم الادارية، فتأسيس الديوان (ديوان الجند)، وتنظيم الضرائب، وانشاء الحواضر الجديدة (البصرة، الكوفة، الفسطاط، القيروان)، وتشجيع الهجرة الى البلاد الجديدة يشعر بأن الاساس الاول للتنظيم هو فكرة الجهاد .

ومع ذلك، كانت تتخلل المجتمع العربي نظرتان ـ نظرة قبلية، فيها عصبية وفيها تفاخر بالنسب، وفيها غرور وضيق، ونظرة سمحاء تمثلت بالاسلام، تقف ضد القبلية ومفاهيمها ، وترى في الايمان رابطة واسعة، كما ترى في العربية صلة وقربى ضمن نطاق الاسلام. وكانت النظرة الثانية تزداد رسوخا وسعة على مر الايام، وكان انتصار العباسيين دليلا على تفوقها. وبانتشار الاسلام ودخول جماعات متزايدة من الشعوب الاخرى فيه، عن رغبة وايمان، بدأت هذه الشعوب تشارك في حمل رسالته، ولم تعد قاصرة على العرب وحدهم، وعلى هذا الاساس بنى العباسيون

---

(١) الجاحظ ـ البخلاء ، ص ٢٠٩ .

خطتهم في مطلع دولتهم الجديدة .

ولكن نشاط العرب الثقافي، ودورهم الواسع في طبع الحضارة الجديدة بطابع عربي اسلامي، وفي تكوين ثقافة عربية غنية جعل لهم رسالة حضارية الى الشعوب الاخرى هي رسالة الحضارة العربية الاسلامية. ثم ادرك العرب، في فترة المساواة العباسية رد الفعل لدى الشعوب الاخرى، ولاحظوا العصبية للقوميات (١) والثقافات الاعجمية فراحوا يؤكدون على الثقافة العربية، ويعنون بالارث الثقافي العربي ككل، قبل الاسلام وبعده، وخاصة في الشعر والتكوين اللغوي .

ومن الواضح بعد هذا العرض، ان الشعوبية وقرينتها الزندقة، لم تكن حركة طبقة اجتماعية معينة (كما اعتقد احمد امين) لانها تعبر عن وعي شعب او اكثر، ولأن هذا الوعي تمثل في صور مختلفة بين الجماعات المختلفة، ولأنه ظهر في اطار ثقافي وديني بين تلك الفئات التي لها المؤهلات الفكرية او الاستعداد الذهني اللازم. وكل محاولة لاكسابها صفة طبقية او لحصرها في فئة اجتماعية معينة انما يناقض طبيعتها وشمولها .

---

(١) يرد اول ذكر لكلمة (قومية) في رسالة يحيى بن مسعدة « النصف الاول للقرن الخامس الهجري » في رده على رسالة ابن غرسيه في الشعوبية . انظر نوادر المخطوطات المجموعة الثالثة، (١٩٥٤) ص ٢٧٧ .

مخطط الشعوبية الفكري

وحين ندرس حملات الشعوبية، نجد انها تنصب صراحة وقبل كل شيء على الجذور والاصول، فهي تهاجم العرب قبل الاسلام وتتهمهم في كل شيء، في اسلوب حياتهم، في مطاعمهم وملابسهم، في فصاحتهم وخطبهم، في اساليب قتالهم ، في انسابهم، في علاقاتهم الاجتماعية ، في كرمهم، في مقاييسهم الخلقية وفي مروءتهم .

كما انك ترى جزءا هاما من الردود ينصب على دفع هذه التهم، وعلى اظهار المروءة العربية والسجايا العربية الحميدة، وعلى الدفاع عن انساب العرب وعن كيانهم الثقافي وعن اسلوب معيشتهم آنئذ. وهذه الملاحظة ضرورية لفهم جانب مهم من الصراع الثقافي السياسي العنيف بين الشعوبية والعرب .

وقد يتبادر الى الذهن ان تركيز الشعوبية هجومهم على العرب قبل الاسلام يعود الى تقدير وضعهم الحضاري في الاسلام ولكن الشعوبية انكرت على العرب دورهم الحضاري. فلم يكن القصد اذن التمييز بين حال العرب قبل الاسلام وبعده، بل كان موقفهم هذا سبيلا يتستر به الكثيرون خوف السلطان القائم وخوف المؤمنين عامة لان هؤلاء يعرفون للعرب دورهم في الاسلام.

ولكن هذا التستر لم ينطل مدة طويلة لان هجمات الشعوبية امتدت بالتدريج الى فترات التاريخ الاسلامي. وكان طبيعيا ان تهاجم الشعوبية العصر الاموي مستغلة نظرة العباسيين وموقفهم من الامويين. ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل شوهوا التاريخ العربي في فتراته الاخرى مثل صدر الاسلام والعصر العباسي. فلم تسلم منهم فترة ولم ينج منهم احد. فأنت ان تليت الروايات ورسمت منها هيكلا للتاريخ العربي حصلت على صورة فجة غريبة (١) .

امثلة من الشعر

واقدم ما وصل من اثار الشعوبية جاء في الشعر، ولكن النثر اوسع وهو يكمل الصورة. واول ما يطالعنا تفاخر الفرس بالانساب الفارسية وبالامجاد الفارسية. ومن ذلك قول اسماعيل ابن يسار :

اصلي كريم ومجدي لا يقاس به ولي لسان كحد السيف مسموم
احمي بهمجد اقوام ذوي حسب من كل قرم بتاج الملك معموم
جحاجح سادة بلج مرازبة جرد عتاق مساميح مطاعيم (٢)

ومنه قول بشار :

ونبئت قوما بهم جنة يقولون من ذا وكنت العلم
الا ايها السائلي جاهدا ليعرفني انا انف الكرم
نمت في الكرام بني عامر فروعي واصلي قريش العجم (٣)

وترى التفاخر بالامجاد الفارسية قويا واضحا، فهذا مهيار الديلمي يقول :

قومي استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم وبنوا ابياتهم في الشهب

---

(١) انظر الدوري ـ مقدمة في تاريخ صدر الاسلام (ط : ٢) ص١١ ـ ١٧ .

(٢) الاغاني ج ٤ ص ٤٢٢ ـ ٤ .

(٣) ن.م.ج ٣ ص ٢١ .

وهذا الصفدي يقول :

وابي ساسان كسرى بن هرمز وخاقان لي لو تعلمين نسيب
ملكنا رقاب الناس في الشرك كلهم لنا تابع طوع القياد جنيب (١)

واستمع الى علان الشعوبي الوراق يقول :

ان لي فخرا مباءته في قرار النجم مأهول
ورجال شريهم غذق هم لما حازوا مباذيل
كسرويات ابوتنا غرر زهر مقاويل(٢)

وترى لدى البعض نبرة التهجم على العرب والتفاخر مقابل ذلك بامجاد فارس. وترى في هذا نوعا من التحدي ، تحدي المدافع واثبات كيان له، كقول بشار :

احين كسيت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا بن راعية وراع بني الاحرار حسبك من خسار(٣)

وكقول الشاعر الفارسي امام الصاحب بن عباد :

فلست بتارك ايوان كسرى لتوضح او لحومل فالدخول
وضب في الفلا ساع وذئب بها يعوي وليث وسط غيل

وانظر الى قول الصفدي، ابو يعقوب الخريمي يتحدى ويدافع :

ابالصغد بأس اذ تعيرني جمل سفاها ومن اخلاق جاري الجهل
وما ضرني ان لم تلدني يحابر ولاتشتمل جرم علي ولا عكل(٤)

واستمع الى تبرم بشار وسبابه في قوله :

وهجاني معشر كلهم حمق دام لهم ذاك الحمق
ليس من جرم ولكن غاظهم شرفي العارض قد سد الافق

وترى في الشعر نبرة فارسية قومية واضحة ، استمع الى

---

(١) معجم الادباء ج ٧ ص ١٨ .
(٢) ن.م. ج ٥ ص ٦٨ .
(٣) الاغاني ج ٣ ص ١٦٦ – ١٦٧ .
(٤) معجم الادباء ج ٥ ص ٣٦٣ .

مهيار الديلمي حين يقول :

اي مجد يضمنا وفخار يوم انسابنا اليه تصير
ان فقدنا السرير والمنبر المنصوب فالتاج حظنا والسرير
حسبنا ان تعلم الملك منا والسياسات فيه والتدبير

وهذا ابو نواس يتذكر تراث الساسانيين ويقول :

مسارحها الغربي من نهر صرصر فقطربل فالصالحية فالصفر
تراث انوشروان كسرى ولم تكن مواريث ما ابقت تميم ولا بكر
قصدت بها ليلى وليل ابن حرة له حسب زاك وليس له وفر

وترى لدى المتوكلي وجهة قومية تتغنى بالامجاد الماضية وتحلم باعادتها ، اذ يقول :

انا ابن الاكارم من نسل جم وحائز ارث ملوك العجم
ومحيي الذي باد من عزهم وعفى عليه طوال القدم
وطالب اوتارهم جهرة فمن نام عن حقهم لم انم

ثم يقول :

معي علم الكابيان الذي به ارتجي ان اسود الامم
فقل لبني هاشم اجمعين هلموا الى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرماح طعنا وضربا بسيف خدم
فعودوا الى ارضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعي الغنم
فاني سأعلو سرير الملوك بحد الحسام وحرف القلم

وترى جنب هذا سخرية بالعرب وتهكما، فيه استفزاز وفيه شطط واضح، فهذا ابو نواس يقول (١) :

عاج الشقي على رسم يسائله وعجت اسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من اسد لا در درك قل لي من بنو اسد
ومن تميم ومن عكل ومن يمن ليس الاعاريب عندالله من احد

وهذا ابو العتاهية يتهجم على والبة بن الحباب في ادعائه النسب الى العرب ويقول :

---

(١) معجم الادباء ج ١ ص ٣٢٢ .

انت عندي عربي ليس في ذاك كلام
عربي عربي عربي والسلام
شعر اجفانك قيصوم وشيح وثمام

لقد عبر الشعر عن بعض اتجاهات الشعوبية من تفاخر بالنسب الفارسي ومن تذكر للامجاد القديمة، ومن تنديد بالعرب عن طريق التهجم على العرب القدامى، ومن دعوة الى اعادة الملك الى الفرس، وهي صور قصيرة عاطفية يقدمها الشعر، ولكننا نجد التفكير الشعوبي اوضح واشمل في الاثار الاخرى .

في النثر

ارادت الشعوبية ان تبين ان العرب كانوا مجموعة قبائل لا تربطها رابطة وليس لها من الحضارة نصيب، وانهم كانوا في حالة سمجة من الهمجية والتخلف، في حين ان الشعوب الاخرى كالفرس والروم كانوا اصحاب حضارات راسخة. قالت الشعوبية «للامم كلها من الاعاجم ملوك تجمعها ومدائن تضمها واحكام تدين بها وفلسفة وبدائع من الادوات والصناعات. ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا اثر في فلسفة الا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم» (١) .

وقال الجيهاني الشعوبي «ليس للعرب كتاب اقليدس ولا المجسطي ولا الموسيقى ولا كتاب الفلاحة ولا ما يجري في مصالح الابدان ويدخل في خواص الانفس» (٢) . وكانهم خلو من كل انتاج فكري يذكر. وذهبوا الى ان اسلوب معيشتهم وحياتهم تكشف عن هذه الحالة البدائية، وعبروا عن ذلك بلهجة عنيفة. يقول الجيهاني ان العرب «يأكلون اليرابيع والضباب والجرذان

(١) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ج ٣ ص ٤٠٥ .
(٢) التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٨٩ .

والحيات، ويتعاورون ويتساورون ، ويتهاجون ويتفاحشون»(١).

ثم ان اساليب قتالهم ومعداتهم الحربية كانت بسيطة، ولم تكن لهم معرفة بالتعبئة او بادوات الحرب المتقدمة ، وقد فصل الجاحظ في كتابه البيان والتبيين في ذكر هجمات الشعوبية ورد على تهجمهم بقوة (٢) .

وحاولت الشعوبية ان تنفي صفة الامة عن العرب، فلم يدخلوهم ضمن الشعوب، كما ان اطلاقهم للفظة (الشعوبية) على انفسهم يشعر بأنهم قصروا مفهوم الشعوب على انفسهم، واما العرب في زعمهم فقبائل متفرقة متنازعة، والقبلية قرينة البداوة وهي بعيدة عن الحضارة بعد العرب عن الحياة المدنية، في حين ان الشعوب ترتبط بالحضارة، وفسروا الاية الكريمة «يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. الاية» بهذا المعنى (٣) .

وحاولت الشعوبية، بعد ذلك ان تقطع اوصال التاريخ العربي

---

(١) ن.م. ص ٧٨ ـ ٨٠ . وكانت بعض التعليقات حافلة بالسخرية . جاء في البخلاء « قال مديني لاعرابي : اي شيء تدعون واي شيء تاكلون ؟ قال : ناكل ما دب ودرج الا أم حبين . قال المديني : لتهن ام حبين العافية » البخلاء ص ٢٣٣ .

(٢) تتلخص هجمات الشعوبية على اسلحة العرب ومعداتهم في الجاهلية بانها بسيطة فهم لا يعرفون العرادة والمجانيق والدبابات ولا يعرفون استعمال الخنادق ولم تكن عندهم طبول او بنود او جواشن او خوذ ولم يعرفوا الزرق بالنفط والنيران ، كما ان طرقهم في القتال وفي التعبئة بدائية. انظر البيان والتبيين ج ٣ ص ١٦ـ١٨ .

(٣) يقول ابن قتيبة : « وبلغني ان رجلا من العجم احتج بقول الله (تعالى) « يا ايها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وانثى . الاية » وقال : الشعوب من العجم والقبائل من العرب والمقدم الفضل من الآخر . وقد كنت ارى اهل التسوية يحتجون بذلك» .

وان تعزلهم عن ماضيهم او ان تطويه، لتظهر بأنهم شعب حديث النشأة، وارادوا نفي الاتصال الثقافي في تاريخهم بهذا الهجوم المركز على فترة قبل الاسلام. ولكن هذه المحاولة المتسترة للفصل بين عرب قبل الاسلام وبعده لم تنطل على العرب، لان الكيان العربي موصول بالاصول، ولان الشعوبية في اندفاعها لم تقف عند فترة معينة كما اشرنا .

ورد انصار العروبة هذه التهم: فقد دافعوا عن حياة الترحل وراوا فيها الفضيلة والحرية. «قالوا (اي العرب) لنكن محكمين في الارض ونسكن حيث نشاء، اصلح من غير ذلك» . ولاحظوا في الترحل دليلا على نبل الهمة وشدة الانفة والحمية والهرب من الذل «فسكنوا البر الافيح الذي لا يخافون فيه حصرا ولا منازلة» ولما كانت الارضين معرضة للافات، فالترحل يورث صحة الامزجة وقوة الفطن «فانِ العقول والاراء تتولد من حيث تولد الهواء. فآثرت العرب سكنى البوادي والحلول بالبيداء» وهذا يكسبهم مزايا جيدة، «فهم اقوى الناس همما واشدهم احلاما واصحهم اجساما واعزهم جارا واحماهم ذمارا. واجودهم فطنا، لما اكسبهم اياه صفاء الجو ونقاء الفضاء» (١) وبهذا ربطوا بين البيئة وبين العادات والاخلاق ومع ذلك، فسكنى البادية تحتاج الى جهد وقوة، والى صبر لتحمل شظف العيش والمشقة في البادية (٢) .

وبعد هذا يؤكد انصار العروبة ان العرب كانوا متحضرين حتى في البادية. و«مما يدل على تحضرهم في باديتهم وتبديهم في

---

(١) المسعودي (ط. باريس) ج ٣ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٢) يقول الجاحظ انه قد « يصيب القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهد ما لم يسمع به في امة من الامم ولا في ناحية من النواحي ،وان احدهم ليجوع حتى يشد على بطنه الحجارة ، وحتى يعتصم بشده معاقد الازار وينزع عمامته من راسه ليشد بها بطنه، وانما عمامته تاجه » البخلاءص٢٠١.

تحضرهم، وتحليهم باشرف احوال الامرين اسواقهم التي لهم في الجاهلية مثل دومة الجندل» . وهم بعد ذلك « في بواديهم حاضرون، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة احسن العادات ، ومن البادية اطهر الاخلاق» (١) .

واذا كان العرب يعتزون بانسابهم، فان الشعوبية هاجمت ما لدى العرب منها، وما يعتزون به من سلاسلها، وادعوا انها انساب مدخولة او منحولة (٢) وذهبوا مقابل ذلك الى انتحال انساب وهمية للعجم ليفخروا بها. ادعى الشعوبية ان اسحق ابو العجم، وان امه سارة حرة، بينما اسماعيل ابو العرب، وامه هاجر وهي أمَة، وسموا العجم «بني الاحرار» والعرب « بني اللخناء» . بضوء هذا الادعاء . قال شاعرهم :

في بلدة لم تصل عكل بها طنبا ولا خباء ولا عك وهمدان
ولا لجرم ولا بهراء من وطن لكنها لبني الاحرار أوطان
ارض تبنى بها كسرى مناسكه فما بها من بني اللخناء انسان

ويرد ابن قتيبة على هذا التخليط في اللغة، وعلى غرابة الادعاء في النسب الى سارة ويؤكد زيفه (٣) .

وتطرف الشعوبية في وجهتهم هذه ليخرجوا الى نظرة عنصرية غريبة تؤكد نقاء الاصول كما في قول ابن غرسية « انهم الصهب الشهب. اساورة اكاسرة . جبابرة قياصرة. من القوم الملس الادم. لم تعرق فيهم الاقباط ولا الانباط، حسب حري

---

(١) التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٨٣ .

(٢) انظر العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٢ ، وص ٤٠٩ وص ٤٠٧ .

(٣) يقول ابن قتيبة « واعجب من هذا ادعاؤهم الى اسحق بن ابراهيم (ص) وفخرهم على العرب بانهم لسارة الحرة ، وان اسماعيل اب العرب لهاجر وهي أمة .. » رسائل البلغاء ص ٣٥٢ ، وانظر نوادر المخطوطات ، المجموعة الثالثة ص ٢٤٧ .

ونسب سري » (١) .

وكان العرب يعتزون بشعرهم وبفصاحتهم، وبقابلياتهم الخطابية، فجاءت الشعوبية تركز هجومها عليها وتتخذ وسائل متعددة للطعن بها او لتشويهها. فقد دلسوا في الشعر العربي، خاصة الجاهلي، وقام بعضهم، مثل حماد الراوية وخلف الاحمر بوضع القصائد والاشعار ينسبونها للجاهليين ليشككوا في قيمة الشعر الجاهلي جملة وفي اصالته، وعبثوا بالروايات واثاروا الشكوك حولها ونجحوا في ذلك الى حد كبير. يقول السيد المرتضى «وكان حماد مشهورا بالكذب في الرواية وعمل الشعر واضافته الى الشعراء المتقدمين ودسه في اشعارهم، حتى ان كثيرا من الرواة قالوا : قد افسد حماد الشعر لانه كان رجلا يقدر على صنعته، فيدس في شعر كل رجل منهم ما يشاكل طريقته، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم» (٢) .

وركزت الشعوبية هجومها على الخطابة العربية، فنددت بأساليبها وسخرت من استعمال القناة والقضيب والعصا من قبل الخطباء العرب، وحاولت من وراء ذلك ان تظهر فصاحة الخطباء بمظهر البساطة البدوية. وكان هجوم الشعوبية هنا ينصب على ناحية حساسة في اعتزاز العرب بقابلياتهم، ولذا جعل الجاحظ من عرضه لهجمات الشعوبية على الخطابة ورده عليها محور رده على الشعوبية، وسمي القسم الخاص بذلك في كتاب البيان والتبيين باسم (كتاب العصا) (٣) .

---

(١) نوادر المخطوطات ، المجموعة الثالثة ، ص ٢٤٧ .

(٢) الامالي ج ١ ص ١٣٢ ، وانظر الاغاني (ط . دار الكتب) ج٦ ص ٨٩ وص ٧٤ ، وج ٤ ص ٩٢ .

(٣) فصل الجاحظ في كتابه (العصا) البيان والتبيين ج ٣ ص ٥-١٢٤، في استعراض هجمات الشعوبية على الخطابة العربية وادواتها . ومما قاله « وقد طعنت الشعوبية على اخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة =

وهاجمت الشعوبية اللغة العربية، وهم يدركون انها وعاء الثقافة العربية، وانها في حيويتها ومرونتها استطاعت ان تصبح لغة الثقافة بعد ان صارت لغة السياسة. فالشعوبية تريد مكافحة العربية، وتريد اظهار مزايا اللغات الاخرى، الفارسية خاصة. ويبدو ان هذا الموقف استهدف حث اصحاب تلك اللغات على العودة اليها في انتاجهم الثقافي بعد ان اكتسحتها العربية في هذا الميدان. وكان هذا تمهيدا مبكرا لاستعمال تلك اللغات في الكتابة، فنحن نعرف ان الفرس بدأوا يستعملون الفارسيةالجديدة لنظم الشعر في القرن الرابع الهجري، واخذوا يكتبون بها وينظمون بها خاصة في ظل الامارة السامانية في خراسان وما وراء النهر. وظهرت في هذا الانتاج الادبي نبرة فارسية واضحة، وذهب بعضهم الى ترجمة بعض المؤلفات العربية الى الفارسية كتاريخ الطبري، وكتواريخ بعض المدن مثل تاريخ قم للقمي وتاريخ بخارى للنرسخي. وافتى بعضهم بجواز الصلاة بالفارسية .

ولئن كان في العودة الى اللغات المحلية تعبير طبيعي عن وعي الشعوب الاخرى وتأكيد لذاتها، فان الهجوم على العربية والتقليل من شأنها اثار العرب واثار بعض المسلمين من غير العرب لان العربية لغة القرآن، ولانها اللغة العامة للثقافة خلال عصور. ولذا انبرى الكتاب كالجاحظ والثعالبي وغيرهما للدفاع عن هذه اللغة ولاظهار محاسنها وتأكيد مزاياها بحرارة واندفاع .

= والقضيب والاتكاء والاعتماد على القوس والخد في الارض والاشارة بالقضيب بلام مستكبرة » (البيان والتبيين ج ١ ص ٣٨٣). وقال «وبمطاعنهم على خطباء العرب باخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى والمنثور الذي لم يقف ، وبالارجاز عند المتح وعند مجاناة الخصم وساعة المشاولة وفي نفس المجادلة والمحاورة ، وكذلك الاسجاع عند المناظرة والمفاخرة واستعمال المنثور في خطب الحمالة وفي مقامات الصلح ..» ج٣ ص ٦ .

وكان العرب يعتزون بلغة الشعر الرائع، ولغة الخطب البليغة، ولغة الثقافة، وهي لغة باركها الله بالقرآن (١). والعربية تتميز بسعتها، وبتصاريف كلامها وبمآخذها البديعة فياستعاراتها وبغرائب تصرفها في اختصاراتها ولطف كناياتها في مقابلة تصريحاتها (٢) .

لذا رأى بعضهم في تهجم الشعوبية اثر عجمة ومرض (٣). والعربية بعد هذا، النسب الاول للعرب، والصفة الاولى التي تحدد العروبة، وتميز اصحابها عن الاعاجم، ومن المنتظر ان يؤدي تطرف الشعوبية الى اندفاع العرب في تمجيدها فاعتبروها اشرف اللغات واسناها .

---

(١) يقول الثعالبي « من هداه الله للاسلام .. اعتقد ان العربية في اللغات والالسنة والاقبال على تفهمها من الديانة » . ويقول « ولما شرفها الله عز اسمه وعظمها ورفع خطرها واوصى بها الى خير خلقه » . (فقه اللغة ط . القاهرة ١٢٨٤ ص ٣) .

(٢) انظر التوحيدي ـ الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٧٦ ـ ٧٧ حيث يقول « فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية ، اعني الفرج في كلماتها ، والفناء الذي نجده في حروفها والمسافة التي بين مخارجها ، والمعادلة التي نذوقها في امثلتها والمساواة التي لا تجحد في ابنيتها » .

(٣) الانباري ـ الاضداد ص ٢ .

وجهــة العرب

وهاجمت الشعوبية الثقافة العربية بصورة عامــة، وقــد المحنا الى محاولتهم احياء الثقافة الفارسية القديمة وتشجيعـها على حساب الثقافة العربية، وبذلوا كل جهد لتقليل شأن الثقافة العربية، واظهارها غير وافية بحاجات العصر الجديــد، العصر العباسي، ولم يكن ذلك الا رد فعل لتفوقها وخوفا مــن ان يزول التراث القديم . ولا يخفي ان الثقافة الفارسية القديمة ترتبــط ببيئة غير اسلامية، وبنظرة تختلف بصورة اساسية عن النظــرة العربية الاسلامية، وفي هذا التقاء الشعوبية والزندقة .

وكان رد الفعل قويا واضحا في هذا الصدد. اذ نشط العرب للعناية بتراثهم الثقافي كله، فقاموا بجمع الشعر العربــي القديم يستعينون به في التفسير، ويتخذون منه شواهد في النحــو ، ويجدون فيه سجلا بانساب العرب وايامهم ومآثرهم، ولدينا في مفضليات الضبي وفي حماسة ابي تمام والبحتري امثلة عــلى ذلك. كما نرى العرب يعنون بجمع الاثار الادبية من امثال وخطب ونثر اضافة الى الشعر في كتب اخرى لييسروا تناولها وليقدموا صورة حية للبلاغة العربية وللتراث الادبي كما ترى في كتــاب البيان والتبيين للجاحظ .

ولئن حاولت الشعوبية بتر الجذور الثقافية وفصل ماضي العرب الثقافي عن حاضرهم، فان العرب ادركوا انهم اصحـــاب تراث عريق لا كما تزعم الشعوبية . وهكذا نجد في مؤلفات القرن الثالثالهجري محاولات لاظهار الاتصال الثقافي ولتأكيد الاستمرار والوحدة في الثقافة العربية، عن طريق جمع الاثار الادبيـــة العربية قبل الاسلام وبعده في مؤلفات واحدة كما ترى في اثــار الجاحظ وابن قتيبة (خاصة كتاب المعارف)، وهـــذا التحسس بالاتصال الثقافي نراه جليا لاول مرة لدى العرب (١) .

ومع ان الشعوبية اتخذت نظرة ضيقة حين مجدت الثقافات الاعجمية ورات فيها الكفاية، وقاومت الثقافة العربية، فان موقف حملة الثقافة العربية الاسلامية بقي موقفا مفتوحا يرحب بما هو حسن في الثقافات الاخرى ويابى تجاهلها، بل انهم ضمنـــوا مؤلفاتهم ما راق لهم منها وادخلوه في الاطار الثقافي العربـــي الاسلامي. ولعل نظرة الى (ادب الكاتب) لابن قتيبة تشعرك بهذا الموقف الرحب. وكانت هذه النظرة الايجابية من اسباب ازدهــار الثقافة العربية وتفوقها وانتصارها الاكيد على محاولات الشعوبية المذكورة .

دور العرب في التاريخ

هذا الهجوم على الثقافة العربية يخفي وراءه محاولة لطمس الدور الحضاري للعرب. وهنا أبين ان تاريخ العرب في الاســلام يتخلله تياران اساسيان، يتلازمان حينا، ويسير كل في طريقــه حينا اخر. فهناك انتشار العربية وحركة التعريب الاجتماعـــي

(١) انظر مقدمة كتاب المعارف لابن قتيبة ص ٣ ـ ٦ .

والثقافي التي وسعت افاق العربية وجعلت منها لغة الثقافة والحضارة الجديدة. وتراجعت الديانات الاخرى امام الاسلام بصورة سلمية تلقائية، كما ضمرت الثقافات الاخرى امام الثقافة العربية الاسلامية. وقد سار التياران بقوة، وكانا متماسكين في بعض البلاد مثل شمال الجزيرة العربية واقطار شمالي افريقية، وسار كل في طريقه كانتشار الاسلام في بلاد فارس وجهات أخر من اسيا وافريقية. ولكن الطابع الغالب في فترتنا هذه هو تلازم التيارين وتطابقهما في طريق رحب وبقوة دافعة، وقد سارا بقوة التفوق الذاتي دون فرض او اكراه. ومن هنا كان رعب الشعوبيين، اذ تراجعت الثقافات القديمة وتقلص ظل الديانات المجوسية امام الاسلام والعروبة بسرعة تجلب الانتباه، وتوحي بأن طمس هذه الثقافات والديانات او ذوبانها امر حتمي لا يتطلب الا مزيدا من الوقت. ولما كان العرب محور هذا النشاط، فقد ركز الشعوبيون هجومهم عليهم، فحاولوا ان يصوروا عصر الجاهلية بصورة الهمجية والافلاس الحضاري، وان ينددوا بآثارها الثقافية . ثم حاولوا ان ينكروا دور العرب بعد ذلك، وان يؤكدوا ان لا فضل للعرب في الاسلام ولا دور لهم يوجب ثناء او يشعر بفضل. وهم وان اسلموا قبل غيرهم، الا ان الاسلام جاء للجميع. ثم يعودون بعد هذا الى وجهة غريبة ليقولوا انه ان كان محمد (ص) وبعض الانبياء قبله من العرب، فان الانبياء الذين ظهروا من شعوب اخرى اكثر عددا، فليس لهم اذن ان يفخروا بالرسول العربي. وهذا موقف لا يخلو من ارتباك وتناقض .

وجاء موقف العرب واضحا ينم عن ادراك عميق للمشكل. فقد كتبوا في التاريخ العربي (الاسلامي) بروح جدية وبتأمل ذاتي، وانتجوا من المؤلفات التاريخية ما يدهشك بكثرته وسعته، بل انك تحار امام هذا العدد الكبير من المؤلفات التاريخية، وامام سعة نطاقها حين شملت مختلف فئات المجتمع ومختلف فعالياتهم. وحين تتأمل هذا الوضع ترى ان شعورهم بدورهم التاريخي عامل

اساسي في ذلك .

وترى بعض هذه المؤلفات ينصب بجلاء على اظهار هذا الدور. فحين تقرأ فتوح البلدان للبلاذري مثلا، تدرك بأن هذا المؤرخ الذي كتب في القرن الثالث، انما اراد ان يظهر ذلك الدور الضخم الذي قام به العرب في نشر راية الاسلام وفي تكوين الدولة الاسلامية، وترى ان لهم فضل المتقدم في حمل رسالة الاسلام الى الشعوب الاخـرى .

وحين تهاجم الشعوبية العرب وتحاول رسم اسطورة مربكة للانساب، نجد من يكتب بروح المؤرخ المحقق ليظهر متانة الانساب العربية، وليبين دور العرب في التاريخ الاسلامي عامة. انظر الى (انساب الاشراف للبلاذري) وتأمل محتوياته، تر ان هيكل هـذا التاريخ يستند الى الانساب العربية، وتشعر بأن العرب كانـوا محور التاريخ الاسلامي . وهو في خلال عرضه لهذا التاريخ يكشف لك عن مصدر الحيوية فيه، وعن مركز القوة والثقل في سيره .

وتجد في كتابات بعض المؤرخين مـا يظهر الدورالحضاري للعرب في الاسلام، وما يكشف انحراف الشعوبية في تعصبهـا وبعدها عن الحقيقة. انت ترى في صحائفـهـم ان للعـرب دورا ثقافيا حضاريا وانهم حملة رسالة حضارية الى البشرية . فحين تطالع تاريخ اليعقوبي تشعر بأن العرب ورثوا الحضارات السابقة، وان لهم جذورا حضارية من العصر الجاهلي، وانهم نشطـوا بالاسلام واخذوا من تلك الحضارات ما يناسبهم ليزيدوا في غنى ثقافتهم وفي توسيع افق الحضارة الجديدة. وبينما يدعـو الشعوبي الى تمجيد حضارة فارسية قديمة، يعرض اليعقوبـي وابن قتيبة واضرابهما الى الافاق الرحيبة للحضارة العربيـة الاسلامية، ولا يرونها حضارة خاصة بأمة، وليست هـي للعرب وحدهم، بل انها رسالة العرب (ومن شارك معهم) الـى الشعوب الاخرى .

وكان من اثر التحدي الشعوبي،ان التفت انصار العروبـة

الى الاستمرار والتماسك في تاريخ العرب، قبل الاسلام وبعده. فنجد البعض يعنى بتاريخ العرب قبل الاسلام ويذكر دولهم وايامهم، ولئن وثب العرب وثبتهم الكبرى بالاسلام، وانتشروا في ارجاء المعمورة، وقادوا غيرهم من الشعوب، فانهم كانت لهم دول وكيانات سياسية. وكمثل على ذلك نذكر تاريخ العرب قبل الاسلام للاصمعي. ولقد خرج العرب بالاسلام من ظلام الوثنية، وسموا على الجاهلية (من الجهل)، ولكن الاسلام لم يبطل كل المفاهيم والاخلاق العربية بل ابقى بعضها، ووجد من يذكر ما ابقاه الاسلام مثل ابن حبيب في كتابه (المحبر) .

رابطة اللغة والثقافة

لقد تغافلت الشعوبية عن التطور الكبير في حياة العرب من النواحي الاجتماعية والفكرية، فقد تمثلت بالاسلام الروح العربية السمحاء وتراجعت المفاهيم القبلية، بل لقد نمت فكرة العروبة التي استندت الى اساس ثقافي حضاري، ووجدت في العربية لغة وثقافة، رابطة مشتركة، كما رأت في الاسلام رابطتها مع بقية الشعوب المسلمة. ولا يخفى ان اللغة العربية منطلق هذه النظرة، وان كلمة عربي اطلقت مبدئيا على الناطق بهذه اللغة، ويقابل ذلك الاعجمي الذي يتكلم بلغة اخرى. وترد لفظة عربي في القرآن نسبة الى اللغة العربية بينما ترد لفظة اعجمي نسبة الى الالسنة الاخرى (١). فلم يكن هناك محل لنظرة عنصرية لدى العرب .

---

(١) على سبيل المثال الايات ((كتاب فصلت اياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون)) (فصلت، ٢))، ((وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم)) (ابراهيم، ٤))، و ((لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين)) (النحل ١٠٣) ، و ((ولو نزلناه على بعض الاعجميين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين)) (الشعراء ، ١٩٨))، و ((نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين)) (الشعراء، ١٩٥) .

وبازدهار الثقافة العربية اصبحت الرابطة اللغوية الثقافية رابطة حية، واخذت الفكرة تتبلور ومفهوم الامة العربية يكتسب صورة واضحة، اما فكرة النسب القبلي، فلم يكن لها مفهوم عملي خارج الفخذ والقبيلة، ولم تكن تنطوي على نظرة شاملة، بل انها مفهوم ضيق تراجع امام النظرة الواسعة التي تكونت في الفترة الاسلامية وانت تجد في بعض المؤلفات تعبيرا واضحا عن هذا المفهوم للأمة والنسب .

فهذا الجاحظ يتحدث عن عروبة اسماعيل (ع) ويقول « وقد جعل اسماعيل ، وهو ابن اعجميين عربيا ، لان الله(تعالى) فتق لسانه بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب ، ثم فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين ... ثم حباه من طبائعهم (اي العرب) ومنحه من اخلاقهم وشمائلهم ،وطبعه من كرمهم وانفتهم وهممهم ، على اكرمها واسناها واشرفها واعلاها » (١) . وفي هذا توضيح للاسس الثقافية للعروبة ، ولمفهوم الروابط التي تجعل من العرب امة .

وحين ينكر البعض وحدة العرب محتجا بوجود انساب مختلفة كالقحطانية والعدنانية يرد الجاحظ ويقول : « فان قلت : فكيف كان اولادهما (قحطان وعدنان) جميعا عربا مع اختلاف الابوة ، قلنا : ان العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربة وفي اللغة والشمائل والهمة ، وفي الانفة والحمية، وفي الاخلاق والسجية، فسبكوا سبكا واحدا وافرغوا افراغاواحدا وكان القالب واحد ، تشابهت الاجزاء، وتناسبت الاخلاط حتى صار ذلك اشد تشابها في باب الاعم والاخص ، وفي باب الوفاق والمباينة من بعض الارحام . وجرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب، وصارت هذه الاسباب ولادة اخرى » (٢) . وانت ترى بوضوح ان الجاحظ لا يعتبر النسب او العنصر اساس تكوين

---

(١) الجاحظ ــ ثلاث رسائل، باعتناء فان فلوتن (ليدن ١٩٠٢) ص ١٨ــ١٩ .

(٢) ن. م. ص ٥ــ٦ .

الامة ، بل يرى في اللغة والطباع والسجايا ، وفي البيئة الجغرافية القومات التي تكوّن الامة .

وطبيعي ان يكون هذا المفهوم اكثر ثباتا وابعد اثرا من المفهوم العنصري الذي اتخذته الشعوبية ، وان يلعب دوره في توسع العروبة وفي صمودها امام النظرة الضيقة التي تحدتها .

وهذا لا يعني ان فكرة النسب زالت ، او انها كانت مهملة، ولكنها كانت اجتماعية اذ كان للنسب دوره في تحديد المنزلة الاجتماعية .

ويبدو انه رغم المساواة الكلية في المجتمع العباسي ، فان النسب بقي له اثره بين الناس من مختلف الشعوب . فهذا ابو مسلم الخراساني ممثل العباسيين في خراسان ، ومنفذ ثورتهم، ادعى لنفسه نسبا عربيا رفيعا ليكتسب شرفا بنظر الناس. وحين ضعف العرب سياسيا بقيت لهم منزلة اجتماعية . فعضد الدولة، اقوى امراء البويهيين ، كلف الصابي بكتابة « اخبار الدولة البويهية » واصر عليه ان يضع لآل بويه نسبا عربيا ، فوافق الصابي لينقذ نفسه من الموت ، ولكنه مع ذلك نسب البويهيين الى قبيلة مغمورة في العرب ، الى بني ضبّة .

تطور العرب الاجتماعي

وهكذا لم يتخذ العرب نظرة عنصرية رغم مناداة الشعوبية بها ، بل انهم بمرور الزمن بعدوا عن النظرة القبلية . فقد شهدت الفترة الاخيرة من العصر الاموي بعض الحدة في العصبية بشكل يدل ظاهره على قوتها . ولكن واقع تطور المجتمع العربي يشعر بأن القبلية كانت في مرحلة ضعف وتراجع، وكان ظهورها بالشكل العنيف المربك الذي نراه في خراسان او الاندلس دالا على تدهورها الى فوضى مريعة ، حتى اذا مرت فترة قصيرة من

العصر العباسي ادركنا هذا الضعف والانحلال . ومن الواضح ان الاتجاهات الحزبية هي التي اكتسحت الميدان وهي التي قوضت السلطان الاموي ، وهذا يدل على انها مزقت العصبية القبلية، وكانت تعبيرا عن التحول الاجتماعي ، ولم يكن هذا التحول حدثا بسيطا او طارئا بل كان نتيجة تطور طويل يتصل بالنظرة العربية التي تكونت بالاسلام والتي تناقض النظرة القبلية ، ويتصل بانتقال القبائل الى حياة استقرار حضرية وبعدها عن حياة البداوة ، وتغير اسلوب معيشتها وتحول المجتمعات القبلية الى مراكز حضرية نشطة .

ومن مظاهر هذا التحول ان القبائل لم تعد اساس المجتمع في الحواضر العربية كالبصرة والكوفة كما كانت الحال في البداية ، ولم نعد نشعر ان المجتمع العربي مجرد وحدات قبلية . ففي البداية كان التنظيم القبلي وراء التنظيم العسكري وعماد الجيش ، كما كان دليل المكانة الاجتماعية . ولهذا ايضا كانت الادارة تعتمد الى حد كبير على الاشراف من قريش ومن القبائل الكبيرة الاخرى . ولكن تضعضع القبلية ادى الى ضعف خطير في الجيش ، وادى الى تحول في الادارة نحو المركزية ، فلم تعد الادارة كما كانت مثلا في ايام زياد بن ابيه تعتمد على مساندة ومشورة شيوخ القبائل وتعاونهم ، بل تستند الى السلطان المركزي والى الحاميات العسكرية ، وهي مثلا شامية في العراق منذ ايام الحجاج .

وحين كانت القبائل اساس التنظيم الاجتماعي ، كان المسلمون الجدد من غير العرب جماعات وافرادا ، ينتسبون بالولاء الى قبيلة ما ليكون لهم محل في المخطط الاجتماعي. وهذا ولاء ينطوي على فكرة الحلف ، وان لم يكن حلفا متكافئا. ولما تضعضع الاساس القبلي في المجتمع ، لم يعد هذا الولاء ضروريا ، وهذا واضح منذ اواخر العصر الاموي، وطبيعي ان لا يبقى محل لهذا النوع من الولاء في العصر العباسي . ومن

المنتظر او المفهوم على الاقل ، ان يسخر البعض من هذا الولاء في العصر العباسي كقول بشار :

اصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم
مولى العريب فخذ بفضلك فافخر

بل ان بعضهم كان يحاول افساد الولاء ويدعو الموالي الى الانتفاء منه (١) .

ونرى جل الموالي في هذا العصر موالي عتاقة ، او سلالة موال سابقين ، ونرى بعض الكتاب يعتبر هذا النوع من الولاء دخولا في المجتمع العربي وانتسابا اليه (٢) ، وفي هذا توسيع لاطار المجتمع العربي على اساس ثقافي لا اجتماعي ،وليس غريبا بعد هذا ان لا نسمع كثيرا عن الموالي او عن مشكلة للموالي في العصر العباسي .

العرب والعجم

لقد كانت المقابلة بين العرب والموالي في الفترة الاموية، فصارت الان بين العرب والعجم ، وهذا يتضح بصورة خاصة

---

(١) جاء في الاغاني «وقف رجل من يزيد، شريف، على بشار فقال له : يا بشار قد افسدت علينا موالينا تدعوهم الى الانتفاء منا ترغمهم في الرجوع الى اصولهم وترك الولاء» ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) يقول الجاحظ «ان الموالي بالعرب اشبه واليهم اقرب وبهم امس لان السنة قد نقلت الموالي الى العرب في كثير من المعاني، لانهم عرب في المدعى وفي العاقلة وفي الوراثة، وهذا تاويل قوله (ع) : «مولى القوم منهم ومولى القوم من انفسهم». والولاء لحمة كلحمة النسب، وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم وحكمه حكمهم.. وبذلك النسب حرمت الصدقة على بني هاشم فان النبي (ص) اجراهم في باب التنزيه والتطهير مجرى مواليهم» . الجاحظ ـ ثلاث رسائل، نشر فان فلوتن ص ٦ـ٧ .

حيــن ننظــر الى صفحة اخرى تمثل فيها الصراع بين الشعوبية والعــرب ، وهي صفحـــة الحديث والآثار . وهنــا نجــد عصبية للعجم ومحاولة تفضيلهم في الاسلام وعلى لسان نبيه واصحابه. ولا حاجــة بنــا للقول انهم لجأوا للوضع في الحديث والى وضع اقوال على لسان بعض الصحابة والتابعيــن للتعبير عن عصبيتهم للاعجميــة . ومن الامثلة على ذلــك ، ما ينسب للرسول (ص) من ان الاعاجم ذكرت عنه ، فقال « لانا بهم اوثق منــي بكـــم» او « لأنا ببعضهم اوثق مني ببعضكم » . او مـــا ينسب للرسول من قول ، لا تسبوا فارســا فمــا سبه احــد الا انتقم الله منه عاجلا او آجلا » ، او مــا ينسب اليه « سيأتي ملــك مــن ملوك العجم فيظهــر على المدائن كلهــا الا دمشق » . ووضعت الاحاديث حول ابي حنيفــة مثل « لو كــان العلم معلقــا عنــد الثريــا لتناوله رجل من فارس » او مــا ينسب للرسول « ان آدم افتخــر بــي وانا افتخــر برجل من امتي اسمه نعمــان ، وكنيته ابو حنيفــة ، وهــو سراج امتي » .

ورووا ان الرسول تــلا الآيــة « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم » فقالوا من يستبدل بنــا ، فضرب (ص) على منكـــب سلمــان ثم قــال : هــذا وقومه ، والذي نفسي بيده ، لو كــان الايمــان منوطــا بالثريــا لناله رجال من فارس » . وقد اتخذوا من سلمــان (رضي) كما اتخذوا من ابي حنيفة (رضي) مجــالا للفخــر وللعصبية ورددوا الحديث « سلمــــان منــــا اهــــل البيت » (١).

ومن الطبيعي ان يرد العرب على هذه الادعـــاءات بنفس الاسلوب ، وان تروى الاحاديث والاقوال في الدفاع عــن العرب او تمجيدهم . روي عــن الرسول (ص) « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي » ، وروي عنه (ص) « احبوا العرب

(١) انظر ضحى الاسلام لاحمد امين (ط. ٥) ص ٧٦-٧٧ .

لثلاث : لاني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان اهل الجنة في الجنة عربي » : ورووا ان الرسول (ص) قال : « اذا ذلّ العرب ذل الاسلام » : وانه قال : « من ابغض العرب ابغضه الله » ،وانه قال : « حب العرب ايمان وبغضهم كفر » . ورووا ان الرسول (ص) قال لسلمان الفارسي : « يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك . قال قلت يا رسول الله كيف ابغضك وبك هداني الله؟

قال : لا تبغض العرب فتبغضني » (١) .

ومن هذا يتضح ان الشعوبية لم تترك سبيلا لتأكيد عصبيتها ولمهاجمة العرب الا سلكته مما اضطر انصار العروبة الى استخدام اسلحة مقابلة .

---

(١) ن. م – ص ٧٨، بلوغ الارب ج١ ص ١٦٣. رسائل البلغاء ص ٣٧٤–٥.

موقف الشعوبية من القيم العربية الاسلامية

ونفذت الشعوبيـة بعيدا حيـن هاجمـت القيم العربيـة والفضائل الخلقيـة التي تتمثل في مفهوم المروءة عندهم ، بـل وتناولوا المفاهيم الاسلامية احيانا ، ونسبوا الى العرب مثالـب فرديـة حاولوا اظهارهـا بمظهـر صفات عامة (١) . فقد هاجمت الشعوبيـة فكرة الشرف عند العرب وطعنت في نظرتهم للمـرأة وفي موقفهم منهـا (٢) وتهجمت على فروسيـة العـرب وعلى مفاهيمهم للشجاعـة في حملاتهم على اساليب قتالها واسلحتها. وكـان العرب يعتزون بالكرم والقِرى، فركز الشعوبيون هجومهم على مفهوم العرب للقِرى وحاولوا تشويه روعته وما فيه من بذل

---

(١) يفهم من الجاحظ أن الشعوبية استفادت من المهاجاة بين العرب احيانـا اذ يقول «وتهجي اسد بأكل الكلاب. والعرب اذا وجدت رجلا من القبيلـة قد اتى قبيحا ألزمت ذلك القبيلة كلها، كما تمدح القبيلة بفعل جميـل وان لم يكن ذلك الا لواحد منها، فتهجو قريشا بالسخينـة وعبد القيس بالتمر..» البخلاء ص ٢١٥ .

(٢) انظر العقد الفريد ج٣ ص ٢٦٨، التوحيدي في الامتاع والمؤانسـة ج ١ ص ٩٢ ـ ٩٣ .

وتضحيــة وبالغــوا في التشنيع به ، وانت تجد تفاصيل كثيــرة لذلك في كتاب البخلاء للجاحظ (١) . وذهبوا الى ابعد من ذلك، فكتبوا الرسائل في البخل ، ولسهل بن هارون باع طويل فــي ذلك (٢)، وحاولوا ان يحولوا المأثرة الى منقصة ، وان يجعلواالبذل مذمة وتخليطـا . وقد انبرى الكتاب العرب للرد عليهم . ومـن اروع مـا وصلنـا تلـك الصور الساخرة الممتعة التــي عرضهـا الجاحظ في كتابه (البخلاء) والتي اراد بهـا الرد على سهل بن هارون ، وانصار البخل ، ويكفي ان انقل اليك الفقرة التالية :

« قال تمامة : لـم ار الديك في بلدة قط الا وهو لاقــط يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظهــا قدام الدجاجة ، الا ديكــة مرو، فاني رأيت ديكــة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرهـا من الحب، قال ، فعلمت ان بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر المـاء. فمن ثم عم جميع حيواناتهم » (٣) .

ان مطالعتك لكتاب البخلاء تنقلك من السخرية الى الجد، ومن انكار البخل الى تحليل شنبه فلسفي يبيــن لـك ان البخـل طبع متأصل في نفوس الشعوبيين وبذلك يقدم دفاعا قويـا عـن الكــرم .

ولم تكتف الشعوبيــة بمهاجمة الفضائل العربية ، بل راحت تعمل على تفسيخ القيم الخلقيــة العربية الاسلامية ، فاكثروا من المجون والشراب ، وجاهروا بالخلاعــة وبالانحراف الجنســي واعتبروا ذلـك نوعا مــن التحرر ومثلا في الظرف . وانت تجد في كتاب الاغاني قصصا غريبة عــن تحللهم الخلقي والديني وعن دورهم في افساد الاخلاق . ويمكنك ان تقرأ الاخبار عن سـلوك يحيى بن زياد ومطيع بن ايــاس وحماد عجرد وبشار كأمثلة على

---

(١) انظر الجاحظ ـ البخلاء ص ٢١٨ .

(٢) يقول ابن النديم «وله رسائل في البخل» ص ١٧٤ .

(٣) الجاحظ ـ البخلاء ص ٣٢ .

ذلـك (١). ويسمي ابو نواس جماعـة الزنادقـة الذين ذكرهـم في هجائه لإبان اللاحقي ب « العصبة المجان » ، وقد انتبه البعض الى هذا الخطـر وحاولوا مجابهته . جاء في الاغاني . « سألت ابـا عبيدة عن السـبب الذي من أجلـه نهى المهدي بشارا عـن ذكـر النساء ، قال : كـان اول استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره ، حتى قال سوار بن عبدالله الاكبـر ومالك بن دينار : ما شيء ادعى لاهل هذه المدينـة الى الفسق مـن اشعار هـذا الاعمى» (٢) . وجاء عن عبدالكريم بن ابـي العوجاء « كـان عبد الكريـم يفسد الاحداث، فقال له عمرو بن عبيد : قـد بلغنـي انك تخلو بالحدث من احداثنا فتفسده وتستنزله وتدخـله فـي دينـك » (٣) .

من الواضح ان الشعوبيـة والزنادقة اتخذوا وجهة خلقية تخالف القيم العربية الاسلامية ، وحاولوا اظهارهـا بمظاهرخلابة، كالتظاهـر بالظرف ، ولم يكـن ذلك الا تمويها ، ولكنه انطلـى على بعض الناس (٤) . وقد اوضح الثعالبي جانبـا مـن هـذا الوضع اذ قال : « اما قولهم اظرف من الزنديق فقد صار مثلا في زمـان كثر ظرفـاؤه وهو زمـان المهدي ، وكانوا يرمون بالزندقة كصالح بن عبدالقدوس ، وبشار ، وحماد الراوية ، وحماد عجرد، ومطيع بن اياس . وما منهم في الظاهر الا نظيف البزة جميـل

---

(١) انظر الاغاني ج١٢ ص٩٥ـ٩٦، وص ١٠٠ـ١٠٢، ج١٢ ص٧٦، ج٣ ص ٤٠.

(٢) الاغاني ج٣ ص ١٨٢، وانظر قصيدة بشار ص ١٨٣ـ١٨٤ .

(٣) الاغاني ج ٣ ص ١٤٧ .

(٤) قال ابن مناذر في محمد بن زياد :

يا ابن زياد يا ابـا جعفـر ... اظهرت دينا غير ما تخفـي
مزنـدق الظاهـر باللفظ ... باطن اسـلام فتـى عـف
لست بزنديـق ولكنمـا ... اردت ان توسـم بالظـرف

الاغاني ج ١٨ ص ١٩٦ـ٧ (ط. الساسي) .

الشكل ظاهر المروءة » (١) وهنا ترى الربط بين الزنادقة وبين الظرف ، وترى الامثلة عن الزنادقة بين الاظراف ، وترى نظافة الظاهر لدى هؤلاء وترى ان المثل يتصل بفترة ظهور الزندقة ونشاطها لاول زمن المهدي ، وقد كان الصولي صريحا في توضيح معنى ظرف الزنادقة ، حين يعلق على قول ابي نواس « تيه مغن وظرف زنديق » اذ يقول « انما قال ذلك لان الزنديق لا يدع شيئا ولا يمتنع مما يدعى اليه ، فنسبه الى الظرف لمساعدته على كل شيء وقلة خلاقه» (٢) .

ويبدو ان هناك جوانب اخرى لاخلاق بعض الشعوبية. هذا واصل بن عطاء يشكو من تصرف بشار وآرائه ويقول « اما والله لولا ان الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست اليه من يبعج بطنه في جوف منزله » (٣) .

وقد كان الاغتيال سبيلا سلكه بعض الغلاة للقضاء على خصومهم من العرب ، وتفننوا في اساليب الاغتيال الى حد جعله مهنة محكمة الاساليب ، وقد عرف هؤلاء الغلاة بالخناقين ، وهم من فرق ظهرت في الكوفة كالمغيرية والمنصورية خاصة، وشمل ذلك جماعات اخرى من السبئية . وقد ظهر الخناقون في اواخر ايام الدولة الاموية واستمر نشاطهم المرعب حتى ايام المهدي . يقول النوبختي عن ابي منصور العجلي رئيس المنصورية « وكان يأمر اصحابه بخنق من خالفهم وقتلهم بالاغتيال ، ويقول من خالفكم فهو مشرك فاقتلوه فان هذا جهاد خفي » (٤) .

وعاث الخناقون فسادا ، خاصة في منطقة الكوفة التي

---

(١) الثعالبي ـ ثمار القلوب (القاهرة ١٩٠٨) ص ١٢٨ـ٩ .

(٢) امالي السيد المرتضى ج ١ ص ١٤٣ .

(٣) الاغاني ج ٣ ص ٢٤ .

(٤) النوبختي ـ فرق الشيعة ـ ن. ريتر ـ ص ٣٥ .

كانت محل نشاط الفلاة ، وقتلوا الناس بالخنق او بالتشميم (وهو البنج) يعقبه القتل وبالرجم بالحجارة او بالحبال .

وقد اشتد نشاطهم المريع منذ ولاية خالد القسري ، وتلقوا ضربات قوية منه ومن خلفه ، كما سلطوا ارهابهم زمن المهدي فنكل بهم وشردهم . وقد قدم الجاحظ صورة واقعية مرعبة لفعالياتهم ، تدلك على ان الشعوبية لجأت الى ابشع انواع الارهاب في المجتمع .

يقول الجاحظ « ان الخناقين يظاهر بعضهم بعضا ، فلا يكونون في البلاد الا معا ولا يسافرون الا معا ، فربما استولوا على درب بأسره او على طريق بأسره ، ولا ينزلون الا في طريق نافذ ويكون خلف دورهم اما صحارى واما بساتين واما مزابل واشباه ذلك ، وفي كل دار كلاب مربوطة ودفوف وطبول ولا يزالون يجعلون على ابوابهم معلم كتاب منهم فاذا خنق اهل دار انسانا ضرب النساء بالدفوف وضرب بعضهم الكلاب فسمع المعلم فصاح بالصبيان : صيحوا ، واجابه اهل كل دار بالدفوف والصنوج كما يفعل نساء اهل القرى ، وهيجوا الكلاب فلو كان المخنوق حمارا لما شعر بمكانه احد » (١) .

ويعطي الجاحظ صورة اخرى لاساليبهم ويقول « ولقد صحب منهم ناس رجلا من الري وفي حقوه هميان ، فكان لا يفارق معظم الناس ، فلما رأوه قد قرب من مفرق الطريقين ، ورأوا احتراسه وهم نزول اما في صحراء واما في بعض سطوح الخانات ، والناس يتشاغلون بامورهم فلم يشعر صاحب الهميان نهارا والناس حوله الا والوهن (حبل) في عنقه وطرحه الاخر حين القاه في عنقه ووثب اليه وجلس على صدره ومدّ الآخر برجليه والقى عليه ثوبا واذن في اذنه فقام اليهم بعض اهل الرفقة كالمعين المتفجع فقالوا له مكانك فانه ان رآك خجل واستحى . فامسك

---

(١) الجاحظ ـ الحيوان ج٢ ص ٢٦٤ ـ ٥ .

القوم عنهم وارتحل القوم واعجلوا بصاحبهم ، فلما خلوا به اخذوا ما احبوا وتركوا ما احبوا، ثم حملوه على ايديهم حتى اذا برزوا رموه في بعض الاودية » .

ويذكر الجاحظ شيئا عن تفننهم وبعض اساليبهم في محل آخر ويقول « لان من الخناقين من يكون جامعا وبذلك يسمونه اذا جمع الخنق والتشميم وحمل معه في سفره حجرين مدملكين ملحلحين . فاذا خلا برجل من اهل الرفقة (اي في السفر) استدبره فرمى بأحدهما قمحدونه (آخر راسه) وكذلك ان كان ساجدا، فان دمغه الاول سلبه ، وان هو رفع راسه طبق بآخر وجهه ، وكذلك ان الفاه نائما او غافلا (١) » .

ومن هذا ترى ان الفلاة لم يكتفوا بالقيام بحركات ضد المجتمع العربي الاسلامي،بل لجأوا الى وسائل الارهاب واستخدموا الحجارة والخنق والحبال للتنكيل بالناس .

---

(١) ن. م. ص ٢٧١ ومما يسترعي الانتباه ان بعض القبائل مثل بجيلة وكندة اشتركت مع الخناقين في فعالياتهم .

ذيول الشعوبية

وقبل الانتهاء ، يمكننا ان نشير الى جماعات انتقدت العرب او هاجمتهم ولكنها لم تكن تفكر باعادة سلطان او بالقيام بثورات ، ولعلها كانت تفعل ذلك لتكون لها منزلة اجتماعية ولترفع من شأنها . وفي هذا النطاق نستطيع ادخال الاشارات الى عصبية النبط . ويقصد بهم الساميون سكان العراق القدماء ، « ومنهم ملوك بابل » وهم يذكرون ما كان لهم من عز وما صاروا اليه . وقد وجد بين المتكلمين من قال انهم افضل من العرب (١) .

وقد سبق ان اشرنا الى كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، والذي اراد مؤلفه ان يظهر طول باعهم في الحضارة والعمران . وقد وردت بعض الاحاديث والاخبار في فضلهم (٢).

كما اننا نجد بعض الاشارات الى محاولة السودان تأكيد فضلهم ومزاياهم ، وقد اورد الجاحظ الكثير من ذلك في

(١) المسعودي (ط. اوروبا) ج ٣ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) انظر لسان العرب ج٢ ص ٤٨٧، وياقوت معجم البلدان (مادة كوش).

رسالته الموسومة ب (كتاب فخر السودان على البيضان) . (1)

ولكـن هذه الاشارات انما تدل على محاولة لاثبات كيـان اجتمـاعي لجماعات تحس بحاجتهـا الى ذلك في المجتمع العربي الاسلامـي ، ومن المتعذر وضعهـا في النطاق التهجمي العنيف للشـعوبيـة .

---

(1) الجاحظ ـ ثلاث رسائل (باعتناء فان فلوتن، ليدن ١٩٠٢) ص ٥٧ ومابعدها.

نظرة شاملة الى الموضوع

هذه خطوط عامة للحركة الشعوبية ولأوجـــه نشاطهــا. ولم ندخل فيها الثورات العلنية المسلحة ، ولــم نتنــاول معهــا نظرة بعض الرؤساء الفرس الذيــن ثاروا على العباسيين ونجحوا في تكويــن امارات فارسيــة في القرن الرابع الهجري وما بعده، وان انطوى بعضهــا على حقــد شديد على العرب وعــلى عــداء للعروبة او للاسلام ، بل اكتفينــا بالاشارة الى النشاط الشعوبــي ضمــن الاطار السياسي للخلافة .

وانت ترى انهــا حركة شاملة ، اذ وجدت انصارها ودعاتها بيــن الوزراء والكتاب والادباء والعامة . وهي حركة يتضح فيها العداء للعروبة حينا وللاسلام حينا ، وترى جهدها في كل حقل لثل السلطان القائم وهــو في اساسه عربي ، ولاضعاف الاســلام الذي حمل العرب رسالته قبل غيرهم .

وترى ان الحركة الشعوبيــة تتميز بنبرة عنصرية ،وبالعودة الى احياء التراث القديم (قبل الاسلام) للشعوب الاخرى ، في حين ان حملة الراية العربية الاسلامية انكروا كل نظرة عنصريــة، بــل ان الفكرة العربية ومفهوم الامة العربية استندا الى مقومات من اللغة والثقافــة ومن الاخلاق والسجايا ومــــن التربــة او

البيئة ، كما ان تاكيدهم انصب على الثقافة العربية الاسلامية.

ولما كانت الاصول الثقافية العربية ، من لغة وشعر وامثال وثيقة الصلة بتكوين العرب وبحياتهم ، فانهم دافعوا عنها وعنوا بها حين حاولت الشعوبية قطع الجذور .

وانت ترى الصلة وثيقة بين الزندقة والشعوبية ، بل ان الشعوبية كانت من الدوافع الاساسية للزندقة . وهذا نتيجة الارتباط الوثيق من ناحية السير التاريخي بين العروبة والاسلام من جهة ، وبسبب ارتباط الشعوبية والزندقة بمفاهيم وعقائد دينية قديمة غير اسلامية ، مجوسية وغيرها ، من جهة اخرى. كما ان حركة الغلو تكون جانبا آخر للنشاط الشعوبي في الحقل الديني ، لان الغلو ينطوي في اساسه على عقائد وآراء غير اسلامية مزجت ببعض المفاهيم الاسلامية ليتسع المجال لها بالظهور احيانا .

ومن الواضح ان الشعوبية والزندقة تستمدان الوحي من نطاق حضاري خارج نطاق العروبة والاسلام ، وان آراءهما في الاساس آراء وافدة ترى اصولها وولاءها خارج المجتمع العربي الاسلامي .

تبين لنا من هذه الدراسة ان الرواسب الحضارية والمجموعات البشرية التي لا جذور لها في المجتمع العربي الاسلامي حملت راية الشعوبية ، وهي بين من يريد اعادة سلطان اندثر وبين من لا يحلم بذلك بل يريد تفسيخ المجتمع العربي واساسه الاسلامي .

وقد نشطت الشعوبية في دور عز العرب ، وفي فترة سيادة الخلافة ، فلما تشقق سلطان العرب ، وتضعضعت الخلافة بالحركات الانفصالية ، هدأت سورة الشعوبية وخفت هجماتها . ومن الطبيعي ان تنشط الشعوبية في دور نهضة العرب وتوسع الاسلام ، لانها رأت في هذا التوسع وفي تلك النهضة خطرا على كيانها وارثها ، وهذه ناحية جديرة

بالملاحظة والتذكر .

وسلكت الشعوبية سبلا عديدة بين ظاهر ومستور وكلها لها اثرها وخطرها . فهي تريد ان تربك العقائد وتشوه المفاهيم الاسلامية لتزعزع قاعدة المجتمع واساسه . وهي تنفذ باسم العقل والمنطق الى تحوير معنى النصوص والمفاهيم الاسلامية اذ تنتقل الى التأويل الذي يخرج النصوص من معانيها الاسلامية الى مفاهيم غريبة بعيدة عن الاسلام .

ونحن نحس بتشدق الكتاب الشعوبيين بالثقافات الاعجمية، وتمجيدهم لكل ما هو خارج نطاق الثقافة العربية الاسلامية ، ونرى تهكمهم بهذه الثقافة وسخريتهم باصولها .

ونرى ان هذا الموقف يرافقه جهل باصول الثقافة العربية الاسلامية ، وتعصب اعمى للثقافات الاعجمية، وهم يفعلون ذلك باسم الحرية الثقافية وتحت ستار الفكر المتحرر . والشعوبية تندد بالمثل الخلقية وبالقيم العربية الاسلامية ، وتذهب الى التحلل وتنزع الى المجون وتدعو الى نظرات اجتماعية وخلقية تتعارض كليا مع القيم العربية الأسلامية ، والشعوبية تفعل ذلك باسم الظرف والحضارة وتتبجح به بدعوى الحرية الاجتماعية وهي تدرك ان هذا سبيل فعال لتفكيك الروابط ولاضعاف الكيان الاجتماعي .

وتحاول الشعوبية طمس الذات العربية ، وقطع الجذور تاريخيا وثقافيا ، وتفتيت الوحدة ، فتبدأ بمهاجمة الانساب العربية القديمة ، وتتهجم على العرب القدامى وتظهرهم بمظهر التأخر والهمجية وتسخر من ثقافتهم وتشكك في شعرهم بما تدخله فيه من انتحال ، وتهاجم العربية ، وهي بعد ذلك تهاجم المروءة العربية القديمة بما فيها من فروسية وكرم ووفاء وفصاحة .

ثم تأتي الشعوبية الى العرب في الاسلام فتنكر دورهم في حمل الرسالة الانسانية وتحاول طمس دورهم الحضاري ، فتدعي

ان الحضارة العربية الاسلامية ما هي الا اقتباسات من الاعاجم ، تريد بذلك زعزعة الثقة بالذات وصرف الانتباه الى الثقافات الاعجمية وهي تفعل ذلك في وقت تحاول فيه احياء التراث الاعجمي وتمجيد الآثار الاعجمية وتعمل على بثها في المجتمع العربي الاسلامي وعلى تحويله عن ذاته .

وتريد الشعوبية بعد هذا ان تطبع الادارة والحياة العامة بطابع اعجمي فتترجم الكتب عن الفارسية في المراسيم والعادات وشكل الحكم والاخلاق ، وتضع كتبا ورسائل تنسبها للقدماء، وتعمل على بثها وترويجها .

واذا كان الفقهاء هم حملة لواء الثقافة العربية الاسلامية اصلا، فان الشعوبية ارادت ان تجعل من كتّاب الدواوين حملة للتراث والثقافات الاعجمية تحاول عن طريقهم ان تؤثر في التوجيه الفكري والثقافي .

ولم تكتفِ الشعوبية بكل ذلك ، بل انها لجأت في اندفاعها وعنفها الى الاغتيال وتوسلت لذلك بالخنق واستعملت المخدر والحجارة والحبال .

ولنا ان نتساءل عن سبب النشاط الشعوبي في العراق بصورة خاصة . فنلاحظ ان العراق واد خصيب ، يمثل امتدادا طبيعيا للجزيرة العربية ، ولذا اتته الموجات البشرية من الجزيرة وطبعته بالطابع السامي العربي ، اما الاقوام الشرقية فلا تأتيه الا غازية ولكنها ترتد بعد فترات قصيرة او طويلة تاركة وراءها مجموعات بشرية تبقى فيه . ولهذه المجموعات جذورها الثقافية وهي جذور خارجية .

وقد كان العراق ساحة صراع عسكري وثقافي واحتكاك بشري بين الساميين والفرس في القديم . ولما جاءت آخر موجة سامية ، وهي الموجة العربية ، بالفتوحات ، تقدمت وغمرت فارس وبلغت اواسط اسيا ، وركزت الطابع العربي الاصيل للعراق بعد فترة من الخضوع للغزو الفارسي . ولم تمر فترة

حتى ظهر الصراع بين الاسلام والديانات الفارسية ، وبين العربية واللغات والثقافات الاعجمية .

والعراق بلد حدي ، فهو نهاية المنطقة العربية شرقا ، وهو المركز الذي ارسلت منه الحملات نحو الشرق ، ونقطةانطلاق العربية والاسلام في توسعهما في هذا الاتجاه . وهو يجاور المنطقة الفارسية ومن المنتظر بازدياد الوعي الفارسي ورد الفعل المجوسي ان يتجه الصراع نحوه وان يشتد فيه .

ومن الواضح ان وضع العراق الجغرافي الحدي يفرض عليه مهمة تتجاوز نطاقه الجغرافي حضاريا وثقافيا ، لانه باب المنطقة الثقافية العربية ، ومنتهى المنطقة الحضارية . ونحن نعرف ان العرب خرجوا برسالة ، هي رسالة الاسلام اولا ،وهي رسالة الحضارة العربية الاسلامية ثانيا، ولذا فان الصراع في العراق انما هو صراع في سبيل العروبة والاسلام ، وخاصة وانه اصبح في العصر العباسي قلب الحضارة العربية الاسلامية ومحور السلطان العربي ومقره .

ثم ان العراق يقع على طرق المواصلات الرئيسية بين الشرق والغرب ، فهو قلب الطريق البري بين البحر الابيض المتوسط واواسط آسيا ، وهو على الطريق البحري من الهند والشرق الاقصى الى البحر الابيض والغرب . ولذا فان الآراء الثقافية والخبرات الحضارية تنتقل اليه ، كما ان الديانات تلتقي فيه .

وفي الوقت الذي يعتز فيه اهله بثقافته وحضارته الراسخة ، سامية ثم عربية ، فان المجال المفتوح للرواسب البشرية والحضارية ، وللجماعات والآراء الوافدة يؤدي الى احتكاك متصل والى اصطدام حضاري وفكري هو مصدر حيوية وخصب ، وهو سبب صراع واحتكاك متصلين . وفي الوقت الذي ينظر فيه اهله الى ارثهم وجذورهم الثقافية ويرون حاضرهم امتدادا لها فان الجماعات الوافدة تنظر الى الخارج

وتستمد منه التوجيه وتعمل على قطع الجذور .

واذا كانت هذه العوامل تتصف بالاستمرار ، فان هناك عاملا تاريخيا يجدر ذكره ، وهو الثورة ، الثورة العباسية التي رفعت الغطاء واستغلت كافة المجموعات والاتجاهات لضرب الامويين فوجدت فيها الاتجاهات الشعوبية مجالا رحبا ، حتى ظن البعض ان الفرصة حانت لضرب السلطان العربي كليا. وكان طبيعيا ان تفسر كل جماعة اهداف الثورة العباسية تفسيرا يلائم وجهتها ، وكان نشاط الشعوبيين قويا في البدء وفعالياتهم واسعة لدرجة تجلب الانتباه حتى انكشفت وجهتهم بعد فترة وعندئذ احس المجتمع العربي بالخطر الذي يهدده .

وان كان لنا في التاريخ من خبرة نفيد منها ، فانها تشير الى رسوخ الذات الحضارية العربية وانتصارها ، والى اجتيازها المحنة وهي اقوى جذورا واكثر غنى وشمولا . ولكن هذا لا يعني زوال الشعوبية ، خاصة وان موادها ومقوماتها لما تزل موجودة ، وهي حين تكمن انما تنتظر الظروف المؤاتية لتواصل نشاطها ، ولكن الاتجاهات والاساليب الرئيسية تبقى هي هي . وكثير من صفحات الماضي تبدو حية بتجارب الحاضر ، كما ان تجارب الحاضر تنجلي اتجاهاتها بدراسة الماضي . فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

مراجـع

الاصفهاني ، ابو الفرج: الاغاني . طبعـة دار الكتب ، وطبعـة الساسي (حين يشار اليها) ٢١ جـزءا، مطبعة التقدم ، القاهرة .

امين ، احمد : ضحى الاسلام (ط . ٥) القاهرة ١٩٥٦، ٣ أجزاء

الانبـاري : الاضداد ، باعتناء ابـي الفضل ابراهيم، الكويت ١٩٦٠ .

بارتولـد : الحضارة الاسلامية، تعريب حمزة طاهر، القاهرة ١٩٤٢ .

Browne E.G. :A Literary History of Persia vol. I Cambridge 1929

البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة، باعتناء سخاو، ليبزك ١٩٢٥ .

البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخاليـة . باعتناء سخاو، ليبزك ١٨٧٨ .

التنوخي : الفرج بعد الشدة . جزآن ، القاهـرة ١٩٠٤ .

التوحيدي : الامتاع والمؤانسة . ٣ اجزاء ، باعتنـاء

احمد امين واحمد الزين ، القاهرة ١٩٣٩ – ١٩٤٤ .

الثعالبي : الاضداد، باعتناء ابي الفضل ابراهيم، الكويت ، ١٩٦٠ .

الثعالبي : ثمار القلوب . القاهرة ١٣٢٦ هـ .

الجاحظ : البيان والتبيين . ٤ أجزاء ، باعتناء عبد السلام هارون ، القاهرة (١٩٤٨ – ١٩٥٠) .

الجاحظ : ثلاث رسائل . باعتناء فان فلوتن ، ليدن ١٩٠٢ .

الجاحظ : الحيوان . باعتناء عبدالسلام هارون ، ٧ أجزاء ، القاهرة ١٩٣٨ .

Gibb H.A.R. : The Social Significance of Shuubiyya (Pederesn 1955)

الجهشياري : الوزراء والكتاب . باعتناء مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ١٩٣٨ .

الجوزي (ابن) : المنتظم في التاريخ ج ٥ – ج ١٠ . حيدر آباد الدكن (١٣٥٧ – ١٣٥٩ هـ .)

Goldziher. Ign: Muhammadanische Studien, 2 Vols Halle 1888 - 1890

الرجيلي : الشعوبية (ط . ٢) بغداد ١٩٦٠ .

الدوري، عبدالعزيز : العصر العباسي الاول – بغداد ١٩٤٥ .

الدوري، عبدالعزيز : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام . (ط. ٢) المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦١ .

الدينوري : الاخبار الطوال . باعتناء جرجاس ، ليدن ١٨٨٨ .

السيد المرتضى : الامالي .

Sadighi : Les Mouvements Religieux Iraniens Paris 1938 .

شيرازي،احمد افشار: ماني ودين‌او . طهران ١٣٣٥ هـ.ش.

الطبري : تاريخ الرسل والملوك . ١٢ جزءا . المطبعة الحسينية .

عبد ربه (ابن) : العقد الفريد . ٧ أجزاء ، القاهرة ١٩٣٥.

فياض ، علي اكبر : محاضرات عن الشعر الفارسي والحضارة الاسلامية في ايـران . (جامعة فاروق الاول ، الاسكندرية) .

القاسم بن ابراهيم : كتاب الرد على الزنديق ابن المقفع، باعتناء جويدي ، روما ١٩٢٧ .

قتيبة (ابن) : عيون الاخبار ، ٤ اجزاء ، القاهرة ١٩٢٥.

قتيبة (ابن) : المعارف ، القاهرة ١٩٣٤ .

كرد علي ، محمد : رسائل البلغاء (ط. ٤) ، القاهرة ١٩٥٤.

المبرد : الكامل . مطبعـة الهلال ١٩٢٢ .

المسعـودي : التنبيه والاشراف . القاهرة ١٩٣٨ .

المسعودي : مروج الذهب . ٤ اجـزاء (ط . دار الرجاء) القاهرة ١٩٣٨و٩ مجلدات باعتناء دي مينار ، باريس (١٨٦١ – ١٨٧٧) .

منظور (ابن) : لسان العرب ٢٠ جزءا ،بولاق (١٣٠٠ – ١٣٠٧ هـ) .

النديـم (ابن) : الفهرست . القاهرة ١٣٤٨ هـ .

النوبختي : فرق الشيعة . باعتنـاء هـ . ريتـر ، استانبول ١٩٣١ .

ياقـوت : معجم الادباء ، ٧ مجلـدات باعتنـاء مرجوليوث ، مجموعـة تذكـار جب ، القاهرة (١٩٠٧ – ١٩٢٦) .

اليعقوبي : التاريخ . ٣ اجزاء ، النجف ١٩٣٩ .

ثبت المواضيع

٣٠٠٠/٨١/٨٧٢